

## أهم الأحداث التاريخية من قبل البعثة الحضارات الساندة قبل البعثة ودياناتها أولاً: الإمبراطورية الرومانية:

كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية تعرف بالإمبراطورية البيزنطية، فكانت تحكم دول اليونان والبلقان وآسيا وسوريا وفلسطين وحوض البحر المتوسط بأسره، ومصر وكل إفريقيا الشمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت دولة ظالمة مارست الظلم والجور والتعسف على الشعوب التي حكمها، وضاعفت عليها الضرائب، وكثرت الاضطرابات والثورات، وكانت حياتهم العامة قائمة على كل أنواع اللهو واللعب والطرب والترف.

كان المجتمع الروماني مليئاً بالتناقض والاضطرابات فقد رسخت النزعة الدينية في أذهانهم، وعمت الرهبانية، وشاعت في طول البلاد وعرضها، وأصبح الرجل العادي في البلاد يتدخل في الأبحاث الدينية العميقة، والجدل البيزنطي، ويتشاكل بها، كما طبعت الحياة العادية العامة بطابع المذهب الباطني، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارة عن المجون والترف، والمؤامرات والمجاملات الزائفة، والقبايح والعادات السيئة.

ثانياً: الإمبراطورية الفارسية:

كانت الإمبراطورية الفارسية تعرف بالدولة الفارسية أو الكسروية، وهي أكبر وأعظم من الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وقد كثرت فيها الديانات المنحرفة كالزرادشتية والمانية، ثم ظهرت المزدكية التي دعت إلى الإباحية في كل شيء؛ مما أدى إلى انتشار ثورات الفلاحين وتزايد النهابين للقصور فكانوا يقبضون أو يأسرون النساء ويستولون على الأملاك والعقارات فأصبحت الأرض والمزارع والدور كأن لم تسكن من قبل. وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة، ويضعون أنفسهم فوق بني آدم، لأنهم يعتبرون أنفسهم من نسل الآلهة، وأصبحت موارد البلاد ملكاً لهؤلاء الملوك يتصرفون فيها ببذخ لا يتصور، ويعيشون عيش البهائم، حتى ترك كثير من المزارعين أعمالهم أو دخلوا الأديرة والمعابد فراراً من الضرائب والخدمة العسكرية، وكانوا وقوداً حقيراً في حروب طاحنة مدمرة قامت في فترات من التاريخ دامت سنين طوال بين الفرس والروم لا مصلحة للشعوب فيها إلا تنفيذ نزوات ورغبات الملوك.

ثالثاً: الهند:

اتفقت كلمة المؤرخين على أن أحط أدوارها ديانة وخلقاً واجتماعاً وسياسة - ذلك العهد الذي ابتدئ من مستهل القرن السادس الميلادي، فانتشرت الخلاعة حتى في المعابد؛ لأن الدين أعطاها لونا من القدس والتعبد، وكانت المرأة لا قيمة لها ولا عصمة، وانتشرت عادة إحراق المرأة المتوفى زوجها، وامتازت الهند عن أقطار العالم بالتفاوت الفاحش بين طبقات الشعب، وكان ذلك تابعاً لقانون مدني سياسي ديني وضعه المشرعون الهنديون الذين كانت لهم صفة دينية، وأصبح هو القانون العام في المجتمع ودستور حياتهم، وكانت الهند في حالة فوضى وتمزق، انتشرت فيها الإمارات التي اندلعت بينها الحروب الطاحنة، وكانت بعيدة عن أحداث عالمها في عزلة واضحة يسيطر عليها التزمت والتطرف في العادات والتقاليد، والتفاوت الطبقي والتعصب الدموي والسلالي، وكان المجتمع الهندي راکداً جامداً، وكان هناك تفاوت عظيم بين الطبقات وتمييز معيب بين أسرة وأسرة، فكان المنبوذون فكانوا يعيشون مضطرين خارج بلدهم ومدينتهم.

كان تقسيم سكان الهند إلى أربع طبقات:

- 1 - طبقة الكهنة ورجال الدين، وهم (البراهمة).
- 2 - ورجال الحرب والجندي وهم (شترى).
- 3 - ورجال الفلاحة والتجارة وهم (ويش).
- 4 - ورجال الخدمة وهم (شودر) وهم أحط الطبقات، فقد خلقهم خالق الكون من أرجله -كما يزعمون-، وليس لهم إلا خدمة هذه الطبقات الثلاث وإراحتها.

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً ومكانة لا يشاركون فيها أحد، والبرهمي رجل مغفور له ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه وأعماله، ولا يجوز فرض جباية عليه، ولا يعاقب بالقتل في حال من الأحوال، أما (شودر) فليس لهم أن يقتنوا مالا، أو يدخروا كنزاً، أو يجالسوا برهمنياً، أو يمسه بيدهم، أو يتعلموا الكتب المقدسة.

أصول العرب وحضارتهم

أولاً: أصول العرب:

قسم المؤرخون أصول العرب إلى ثلاثة أقسام بحسب السلالات التي انحدرت منها:

- 1 - العرب البائدة: وهي قبائل عاد، وثمود، والعمالق، وطسم، وجديس، وأميم، وجُرهم وحضرموت ومن يتصل بهم، وهذه درست معالمها واضمحلت من الوجود قبل الإسلام وكان لهم ملوك امتد ملكهم إلى الشام ومصر.
- 2 - العرب العاربة: وهم العرب المنحدرة من صلب يَعْرُب بن يشْجُب بن قحطان وتسمى بالعرب القحطانية ويعرفون بعرب الجنوب ومنهم ملوك اليمن، ومملكة معين، وسبأ وحمير.
- 3 - العرب العدنانية: نسبة إلى عدنان الذي ينتهي نسبه إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وهم المعروفون بالعرب المستعربة، أي الذين دخل عليهم دم ليس عربياً، ثم تم اندماج بين هذا الدم وبين العرب، وأصبحت اللغة العربية لسان المزيج الجديد. وهؤلاء هم عرب الشمال، موطنهم الأصلي مكة، وهم إسماعيل عليه السلام وأبناؤه، والجرهامة الذين تعلم منهم إسماعيل عليه

السلام العربية، وصاهرهم، ونشأ أولاده عرباً مثلهم، ومن أهم ذرية إسماعيل (عدنان) جد النبي صلى الله عليه وسلم الأعلى، ومن عدنان كانت قبائل العرب وبطنها فقد جاء بعد عدنان ابنه معد، ثم نزار، ثم جاء بعده ولداه مُضَر وربيعة. وقد أخرج البخاري عن كليب بن وائل قال: حدثتني ربيبة النبي صلى الله عليه وسلم زينب بنت أبي سلمة قال: «قلت لها: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أكان من مضر؟ فقالت: فممن كان إلا من مضر؟ من بني النضر بن كنانة» البخاري، كتاب المناقب (4/ 185) رقم 3491.

وكانت قريش قد انحدرت من كنانة وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة وانقسمت قريش إلى قبائل شتى من أشهرها جمح وسهم وعدي ومخزوم وتيم وزهرة وبطن قصي بن كلاب، وهي عبد الدار بن قصي وأسد بن عبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي، وكان من عبد مناف أربع فصائل: عبد شمس ونوفل والمطلب وهاشم. وبيت هاشم هو الذي اصطفى الله منه سيدنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم.

قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» (رواه مسلم، باب فضل نسب النبي - صلى الله عليه وسلم - (4/ 1782) رقم 2276).

ثانياً: حضارات الجزيرة العربية:

نشأت من قديم الزمان ببلاد العرب حضارات أصيلة، ومدنيات عريقة من أشهرها:

- 1 - حضارة سبأ باليمن: وقد أشار القرآن الكريم إليها، ففي اليمن استفادوا من مياه الأمطار والسيول التي كانت تضيع في الرمال، وتتحدر إلى البحار، فأقاموا الخزانات والسدود بطرق هندسية متطورة، وأشهر هذه السدود (سد مأرب) واستفادوا بمياهها في الزروع المتنوعة، والحدائق ذات الأشجار الزكية، والثمار الشهية، قال عز شأنه: (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ - فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ - ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ) [سبأ: 15 - 17].
- 2 - حضارة عاد بالأحقاف: وكانوا في شمال حضرموت وهم الذين أرسل الله إليهم نبي الله هودا عليه السلام، وكانوا أصحاب بيوت مشيدة، ومصانع متعددة، وجنات، وزروع وعيون (1) قال تعالى: (كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ - إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ - إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا - وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ - أَتُنبئون بكل ربيع آية تعبتون - وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ - وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطْشَتُمْ جَبَّارِينَ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا - وَآتَقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ - أَمَدَّكُمْ بِالنَّعَامِ وَبَيْنَ - وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ) [الشعراء: 123- 134].

- 3 - حضارة ثمود بالحجاز: دل القرآن الكريم على وجود حضارة في بلاد الحجز، وأشار إلى ما كانوا يتمتعون به من القدرة على نحت البيوت في الجبال، وعلى ما كان يوجد في بلادهم من عيون ويساتين وزروع (1)، قال تعالى: (كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ - إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ - إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا - وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ - أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ - فِي جَنَاتٍ وَعُيُونٍ - وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ - وَتَنجُّوْنَ مِنَ الْجِبَالِ الَّتِي نَافَا فَارِهِينَ - فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا) [الشعراء: 141 - 150].

الأحوال الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية عند العرب  
أولاً: الحالة الدينية:

ابتليت الأمة العربية بتخلف ديني شديد، ووثنية سخرية لا مثيل لها، وانحرافات خلقية، واجتماعية، وفوضى سياسية، وتشريعية، ومن ثم قل شأنهم وصاروا يعيشون على هامش التاريخ، ولا يتعدون في أحسن الأحوال أن يكونوا تابعين للدولة الفارسية أو الرومانية، وقد امتلأت قلوبهم بتعظيم تراث الآباء والأجداد واتباع ما كانوا عليه مهما يكن فيه من الزيف والانحراف والضلال ومن ثم عبدوا الأصنام، فكان لكل قبيلة صنم، فكان لهذيل بن مدركة: سواع، ولكلب: ود، ولمذحج: يغوث، ولخويان: يعوق، ولحمير: نسر، وكانت خزاعة وقريش تعبد إسافاً ونائلة، وكانت مناة على ساحل البحر، تعظمها العرب كافة والأوس والخزرج خاصة، وكانت اللات في تقيف، وكانت العزى فوق ذات عرق، وكانت أعظم الأصنام عند قريش.

روى البخاري في صحيحه عن أبي رجاء العطاردي قال: «كنا نعيد الحجر، فإذا وجدنا حجراً آخر هو أخير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جثوة من تراب، ثم جننا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به» (1).

وقد حالت هذه الوثنية السخرية بين العرب، وبين معرفة الله وتعظيمه وتوقيره والإيمان به، وباليوم الآخر وإن زعموا أنها لا تعدو أن تكون وسائل بينهم وبين الله، وقد هيمنت هذه الآلهة المزعومة على قلوبهم وأعمالهم وتصرفاتهم، وجميع جوانب حياتهم وضعف توقير الله في نفوسهم قال تعالى: (إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [الأنعام: 36].

أما البقية الباقية من دين إبراهيم عليه السلام فقد أصابها التحريف، والتغيير والتبديل، فصار الحج موسماً للمفاخرة والمنافرة، والمباهاة وانحرفت بقايا المعتقدات الحنيفية عن حقيقتها وألصق بها من الخرافات والأساطير الشيء الكثير. وكان يوجد بعض الأفراد من الحنفاء الذين يرفضون عبادة الأصنام، وما يتعلق بها من الأحكام والنحائر وغيرها، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل، وكان لا يذبح للأصنام، ولا يأكل الميتة والدم، وممن كان يدين بشريعة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، فس بن ساعدة الإيادي، فقد كان خطيباً، حكيماً، عاقلاً، له نباهة، وفضل، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بشر بالنبي صلى الله عليه وسلم فقد روى أبو نعيم في دلائل النبوة عن ابن عباس قال: «إن قس بن ساعدة كان يخطب قومه في سوق (عكاظ) فقال في خطبته: سيعلم حق من هذا الوجه وأشار بيده إلى مكة، قالوا: وما هذا الحق؟ قال: رجل

من ولد لؤي بن غالب يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش الأبد، ونعيم لا ينفد، فإن دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أني أعيش إلى مبعثه لكنت أول من يسعى إليه» وقد أدرك النبي صلى الله عليه وسلم ومات قبل البعثة. وكان بعض العرب قد تنصر، وبعضهم دخل في اليهودية، أما الأغلبية فكانت تعبد الأوثان والأصنام.

ثانيًا: الحالة السياسية:

كان سكان الجزيرة العربية ينقسمون إلى بدو وحضر، وكان النظام السائد بينهم هو النظام القبلي، حتى في الممالك المتحضرة التي نشأت بالجزيرة، كملكة اليمن في الجنوب وملكة الحيرة في الشمال الشرقي، ومملكة الغساسنة في الشمال الغربي، فلم تنصهر الجماعة فيها في شعب واحد، وإنما ظلت القبائل وحدات متماسكة. والقبيلة العربية مجموعة من الناس، تربط بينها وحدة الدم (النسب) ووحدة الجماعة، وفي ظل هذه الرابطة نشأ قانون عرفي ينظم العلاقات بين الفرد والجماعة، على أساس من التضامن بينهما في الحقوق والواجبات، وهذا القانون العرفي كانت تتمسك به القبيلة في نظامها السياسي والاجتماعي.

وزعيم القبيلة ترشحه للقيادة منزلته القبلية وصفاته، وخصائصه من شجاعة ومروءة، وكرم ونحوها، ولرئيس القبيلة حقوق أدبية ومادية، فالأدبية أهمها: احترامه وتبجيله، والاستجابة لأمره، والنزول على حكمه وقضائه، وأما المادية فقد كان له في كل غنيمة تغنمها (المرباع) وهو ربع الغنيمة، (والصفايا) وهو ما يصطفيه لنفسه من الغنيمة قبل القسمة (والنشيطة) وهي ما أصيب من مال العدو قبل اللقاء (والفضول) وهو ما لا يقبل القسمة من مال الغنيمة، وقد أجمل الشاعر العربي ذلك بقوله:

لك المرباع فينا، والصفايا ... وحكمك، والنشيطة، والفضول .

ومقابل هذه الحقوق، واجبات ومسئوليات، فهو في السلم جواد كريم، وفي الحرب يتقدم الصفوف، ويعقد الصلح، والمعاهدات. وإذا كانت الجزيرة العربية قد حرمت من نعمتي الزراعة والصناعة، فإن موقعها الاستراتيجي بين إفريقيا وشرق آسيا جعلها مؤهلة لأن تحتل مركزا متقدما في التجارة الدولية آنذاك.

وكان للعرب أسواق مشهورة: عكاظ، ومجنة، وذو المجاز، ويذكر بعض المؤلفين في أخبار مكة أن العرب كانوا يقيمون بعكاظ هلال ذي القعدة، ثم يذهبون منه إلى مجنة بعد مضي عشرين يوماً من ذي القعدة، فإذا رأوا هلال ذي الحجة ذهبوا إلى ذي المجاز فلبثوا فيها ثمانين ليلة، ثم يذهبون إلى عرفة، وكانوا لا يتبايعون في عرفة ولا أيام منى حتى جاء الإسلام فأباح لهم ذلك، قال تعالى: (لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفْضْتُمْ مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِّن قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ) [البقرة: 198].

وقد استمرت هذه الأسواق في الإسلام إلى حين من الدهر ثم دُرست، ولم تكن هذه الأسواق للتجارة فحسب، بل كانت أسواقاً للأدب والشعر والخطابة يجتمع فيها فحول الشعراء ومصانع الخطباء، ويتبارون فيها في ذكر أنسابهم، ومفاخرهم، ومآثرهم، وبذلك كانت ثروة كبرى للغة، والأدب، إلى جانب كونها ثروة تجارية.

#### رابعًا: الحالة الاجتماعية:

هيمنت التقاليد والأعراف على حياة العرب، وأصبحت لهم قوانين عرفية فيما يتعلق بالأحساب والأنساب، وعلاقة القبائل ببعضها والأفراد كذلك، ويمكن إجمال الحالة الاجتماعية فيما يأتي:

1 - الاعتزاز الذي لا حد له بالأنساب، والأحساب، والتفاخر بهما:

فقد حرصوا على المحافظة على أنسابهم، فلم يصاهروا غيرهم من الأجناس الأخرى، ولما جاء الإسلام قضى على ذلك وبين لهم أن التفاضل إنما هو بالتقوى والعمل الصالح.

2 - الاعتزاز بالكلمة، وسلطانها، لا سيما الشعر:

كانت تستهويهم الكلمة الفصيحة، والأسلوب البليغ، وكان شعرهم سجل مفاخرهم، وأحسابهم، وأنسابهم، وديوان معارفهم، وعواطفهم، فلا تعجب إذا كان نجم فيهم الخطباء المصاقع، والشعراء الفطاحل، وكان البيت من الشعر يرفع القبيلة، والبيت يخفضها، ولذلك ما كانوا يفرحون بشيء فرحهم بشاعر ينبغ في القبيلة.

3 - المرأة في المجتمع العربي:

كانت المرأة عند كثير من القبائل كسقط المتاع، فقد كانت تورث، وكان الابن الأكبر للزوج من غيرها من حقه أن يتزوجها بعد وفاة أبيه، أو يعرضها عن النكاح، حتى حرم الإسلام ذلك، وكان الابن يتزوج امرأة أبيه فنزل قول الله تعالى: (وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا) [النساء: 22].

كانت العرب تحرم نكاح الأصول كالأمهات، والفروع كالبنات، وفروع الأب كالأخوات، والطبقة الأولى من فروع الجد كالأخوات والعمات.

وكانوا لا يورثون البنات ولا النساء ولا الصبيان، ولا يورثون إلا من حاز الغنيمة وقتل على ظهور الخيل، وبقي حرمان النساء والصغار من الميراث عرفا معمولاً به عندهم إلى أن توفي أوس بن ثابت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وترك بنتين كانت بهما دمامة، وابناً صغيراً، فجاء ابنا عمه وهما عصبته فأخذوا ميراثه كله، فقالت امرأته لهما: تزوجا البنتين، فأبيا ذلك لدمامتهما، فأنت رسول الله فقالت: يا رسول الله توفي أوس وترك ابناً صغيراً وابنتين، فجاء ابنا عمه سويد وعرفطة فأخذوا ميراثه، فقالت لهما: تزوجا ابنتيه، فأبيا، فقال عليه الصلاة والسلام: «لا تحركا في الميراث شيئاً»،

ونزل قوله تعالى: (لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا) [النساء: 7].

وكان العرب يُعَيِّرُونَ بالبنات؛ لأن البنات لا تخرج في الغزو، ولا تحمي البيضة من المعتدين عليها، ولا تعمل فتأتي بالمال شأن الرجال، وإذا ما سببت اتخذت للوطء تتداولها الأيدي لذلك، بل ربما أكرهت على احترام البغاء، ليضم سيدها ما يصير إليها من المال بالبغاء إلى ماله، وقد كانت العرب تبيح ذلك، وقد كان هذا يورث الهم والحزن والخجل للأب عندما تولد له بنت، وقد حدثنا القرآن الكريم عن حالة من تولد له بنت فقال تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ - يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ) [النحل: 58 - 59].

وكثيرا ما كانوا يختارون دسها في التراب، وأدها حية، ولا ذنب لها إلا أنها أنثى (3)؛ ولذلك أنكر القرآن الكريم عليهم هذه الفعلة الشنيعة قال تعالى: (وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ - بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) [التكوير: 8 - 9].

وكان بعض العرب يقتل أولاده من الفقر أو خشية الفقر فجاء الإسلام وحرّم ذلك قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَنُلِمْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِمَّنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ) [الأنعام: 151].

وقال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) [الإسراء: 31].

كانت بعض القبائل لا تئذ البنات، كما كان فيهم من يستقبحون هذه الفعلة الشنعاء كزيد بن عمرو بن نفيل (1).

وكانت بعض القبائل تحترم المرأة وتأخذ رأيها في الزواج، وكانت المرأة العربية الحرة تأنف أن تفتش لغير زوجها وحليها، وكانت تتسم بالشجاعة وتتبع المحاربيين وتشجعهم، وقد تشارك في القتال إذا دعت الضرورة، وكانت المرأة البدوية العربية تشارك زوجها في رعي الماشية، وسقيها، وتغزل الوبر والصوف وتنسج الثياب، والبرود، والأكسية، مع التصون والتعفف.

4 - النكاح:

تعارف العرب على أنواع النكاح، لا يعيب بعضهم على بعض إتيانها، وقد ذكرت لنا السيدة عائشة رضي الله عنها فقالت: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر: كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمئتها: أرسلني إلى فلان فاستبضعي منه، ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبدا، حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم بصبيها فإذا حملت ووضعت، ومرة ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمى من أحببت باسمه، فيلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، والنكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها وهن البغايا كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها، ودعوا لها القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به ودعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلما بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية إلا نكاح الناس اليوم» (البخاري، كتاب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي رقم 5127. فتح الباري (9/150)).

وذكر بعض العلماء أنحاء أخرى لم تذكرها عائشة رضي الله عنها كنكاح الخدن وهو في قوله تعالى: (وَلَا مُتَّخَذَاتِ أَخْدَانٍ) كانوا يقولون: ما استتر فلا بأس به، وما ظهر فهو لوم، وهو إلى الزنا أقرب منه إلى النكاح، وكنكاح المتعة وهو النكاح المعين بوقت، ونكاح البذل: كان الرجل في الجاهلية يقول للرجل: انزل لي على امرأتك، وأنزل لك عن امرأتي وأزيدك.

ومن الأنكحة الباطلة نكاح الشغار وهو أن يزوج الرجل ابنته على أن يزوجه الآخر ابنته، ليس بينهما صداق.

وكانوا يحلون الجمع بين الأختين في النكاح، وكانوا يبيحون للرجل أن يجمع في عصمته من الزوجات ما شاء دون التقييد بعدد، وكان الذين جمعوا بين أكثر من أربع زوجات أكثر من أن ينالهم العد، وجاء الإسلام ومنهم من له العشرة من النساء والأكثر، والأقل، فقصر ذلك على أربع إن علم أنه يستطيع الإنفاق عليهن، والعدل بينهن، فإن خاف عدم العدل فليكتف بواحدة، وما كانوا في الجاهلية يلتزمون العدل بين الزوجات، وكانوا يسيئون عشرتهن، ويهضمون حقوقهن حتى جاء الإسلام فأنصفهن، وأوصى بالإحسان إليهن في العشرة، وقرر لهن حقوقا ما كن يحلمن بها.

#### 5 - الطلاق:

كانوا يمارسون الطلاق، ولم يكن للطلاق عندهم عدد محدد، فكان الرجل يطلق امرأته ثم يراجعها، ثم يطلقها ثم يراجعها هكذا أبدا، وبقي هذا الأمر معمولا به في صدر الإسلام إلى أن أنزل الله تبارك وتعالى قوله: (الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فِيمَا سَاءَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٍ بِإِحْسَانٍ) [البقرة: 229].

فقيد الإسلام عدد الطلاقات، وأعطى للزوج فرصة لتدارك أمره، ومراجعة زوجته مرتين، فإن طلق الثالثة فقد انقطعت عروة النكاح، ولا تحل له إلا بعد زوج آخر، ففي الكتاب الكريم (فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ طَلَّقَا أَنْ يُفِيمَا حُدُودَ اللَّهِ) [البقرة: 230].

ومما كان يلحق بالطلاق في التحريم الظهار، وهو أن يقول الزوج لزوجته: أنت علي كظهر أمي، وكان تحريما مؤبدا حتى جاء الإسلام، فوسمه بأنه منكر من القول وزور، وجعل الزوج مخرجا منه، وذلك بالكفارة قال تعالى: (الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ. وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ

ثُمَّ يُعَوِّدُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا دَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ - فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسًا فَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ فَاِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ [المجادلة: 2] - [4].

#### 6 - الحروب، والسطو، والإغارة:

كانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، فهم لا يباليون بشن الحروب وإزهاق الأرواح في سبيل الدفاع عن المثل الاجتماعية التي تعارفوا عليها وإن كانت لا تستحق التقدير، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في الجاهلية مما يدل على تمكن الروح الحربية من نفوس العرب وغلبتها على التعقل والتفكير، فمن تلك الأيام مثلاً يوم البسوس، وقد قامت الحرب فيه بين بكر وتغلب بسبب ناقة للجرمي وهو جار للبسوس بنت منقذ خالة جساس بن مرة، وقد كان كليب سيد تغلب قد حمى لإبله مكاناً خاصاً به فرأى فيه هذه الناقة فرماها فجزع الجرمي وجزعت البسوس، فلما رأى ذلك جساس تحين الفرصة لقتل كليب فقتله فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدة أربعين سنة.

وكذلك يوم داحس والغبراء، وقد كان سببه سباً أقيم بين داحس وهو فرس لقيس ابن زهير، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر فأوعز هذا إلى رجل ليوقف في الوادي فإن رأى داحساً قد سبق يرده وقد فعل ذلك فطم الفرس حتى أوقعها في الماء فسبقت الغبراء، وحصل بعد ذلك القتل والأخذ بالثأر، وقامت الحرب بين قبيلتي عيس وذبيان (3).

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج في الجاهلية وهم أبناء عم، حيث إن الأوس والخزرج أبناء حارثة بن ثعلبة الأزدي، واستمرت الحروب بينهم وكان آخر أيامهم (ثُعَاث) وذلك أن حلفاء الأوس من اليهود جددوا عهودهم معهم على النصر، وهكذا كان كثير من حروب الأوس والخزرج يذكيها اليهود حتى يضعفوا القبيلتين فتكون لهم السيادة الدائمة، واستعان كل فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة فاقتتلوا قتالاً شديداً كانت نهايته لصالح الأوس.

وكانت بعض القبائل تسطو وتغير بغية نهب الأموال وسي الأحرار وبيعهم، كزيد ابن حارثة فقد كان عربياً حراً، وكسلمان الفارسي فقد كان فارسياً حراً، وقد قضى الإسلام على ذلك حتى كانت تسير المرأة والرجل من صنعاء إلى حضرموت لا يخافان إلا الله والذنب على أغنامهما.

#### 7 - العلم والقراءة والكتابة:

لم يكن العرب أهل كتاب وعلم كاليهود والنصارى، بل كان يغلب عليهم الجهل والامية، والتقليد والجمود على القديم - وإن كان باطلاً - وكانت أمة العرب لا تكتب ولا تحسب وهذه هي الصفة التي كانت غالبية عليها، وكان فيهم قليل ممن يكتب ويقرأ ومع أميتهم وعدم اتساع معارفهم فقد كانوا يشتهرون بالذكاء، والفتنة، والألمعية، ولطف المشاعر، وإرهاق الحس، وحسن الاستعداد، والتهيؤ لقبول العلم والمعرفة، والتوجيه الرشيد؛ ولذلك لما جاء الإسلام صاروا علماء، حكماء، فقهاء، وزالت عنهم الأمية، وأصبح العلم والمعرفة من أخص خصائصهم، وكان فيهم من مهر في علم قص الأثر، وهو القيافة، وكان فيهم أطباء كالচারث بن كدة، وكان طبهم مبنياً على التجارب التي اكتسبوها من الحياة والبيئة (2).

#### خامساً: الحالة الأخلاقية:

كانت أخلاق العرب قد ساءت وأولعوا بالخمير والقمار، وشاعت فيهم الغارات وقطع الطريق على القوافل، والعصبية والظلم، وسفك الدماء، والأخذ بالثأر، واغتصاب الأموال، وأكل مال اليتامى، والتعامل بالربا، والسرقة والزنا، ومما ينبغي أن يعلم أن الزنا إنما كان في الإماء وأصحاب الربايات من البغايا، ويندر أن يكون في الحرائر، وليس أدل على هذا من أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أخذ البيعة على النساء بعد الفتح: «على أن لا يشركن بالله شيئاً، ولا يسرقن، ولا يزنيين» «قالت السيدة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان: أوتزني الحرة (3)!!».

وليس معنى هذا أنهم كانوا كلهم على هذا، لا. لقد كان فيهم كثيرون لا يزنون ولا يشربون الخمر، ولا يسفكون الدماء ولا يظلمون، ويتحرجون من أكل أموال اليتامى، ويتنزهون عن التعامل بالربا (4) وكانت فيهم سمات وخصال من الخير كثيرة أهلتهم لحمل راية الإسلام ومن تلك الخصال والسمات:

#### 1 - الذكاء والفتنة:

فقد كانت قلوبهم صافية، لم تدخلها تلك الفلسفات والأساطير والخرافات التي يصعب إزالتها، كما في الشعوب الهندية والرومانية والفارسية، فكان قلوبهم كانت تعد لحمل أعظم رسالة في الوجود وهي دعوة الإسلام الخالدة؛ ولهذا كانوا أحفظ شعب عرف في ذلك الزمن، وقد وجه الإسلام قريحة الحفظ والذكاء إلى حفظ الدين وحمائته، فكانت قواهم الفكرية، ومواهبهم الفطرية مذخورة فيهم، لم تستهلك في فلسفات خيالية، وجدال بيزنطي عقيم، ومذاهب كلامية معقدة.

واتساع لغتهم دليل على قوة حفظهم وذاكرتهم، فإذا كان للعسل ثمانون اسماً وللثعلب مائتان وللأسد خمسمائة، فإن للجمل ألفاً، وكذا السيف، وللداهية نحو أربعة آلاف اسم، ولا شك أن استيعاب هذه الأسماء يحتاج إلى ذاكرة قوية حاضرة وقادة.

وقد بلغ بهم الذكاء والفتنة إلى الفهم بالإشارة فضلاً عن العبارة، والأمثلة على ذلك كثيرة.

#### 2 - أهل كرم وسخاء:

كان هذا الخلق متأصلاً في العرب، وكان الواحد منهم لا يكون عنده إلا فرسه، أو ناقته، فيأتيه الضيف، فيسارع إلى ذبحها، أو نحرها له، وكان بعضهم لا يكتفي بإطعام الإنسان بل كان يطعم الوحش، والطير، وكرم حاتم الطائي سارت به الركبان، وضربت به الأمثال (4).

3 - أهل شجاعة ومروءة ونجدة:

كانوا يتماذحون بالموت قتلاً، ويتهاجون بالموت على الفراش قال أحدهم لما بلغه قتل أخيه: إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه، إنا والله لا نموت حتفًا، ولكن قطعًا بأطراف الرماح، وموتًا تحت ظلال السيوف. وكان العرب لا يقدمون شيئًا على العز وصيانة العرض، وحماية الحريم، واسترخصوا في سبيل ذلك نفوسهم. وقال عنتره:

لا تسقني ماء الحياة بذلة ... بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

ماء الحياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل

وكان العرب بفطرتهم أصحاب شهامة ومروءة، فكانوا يأبون أن ينتهز القوي الضعيف، أو العاجز، أو المرأة أو الشيخ، وكانوا إذا استنجد بهم أحد أنجدوه ويرون من النذالة التخلي عن لجأ إليهم.

4 - عشقهم للحرية، وإباؤهم للضميم والذل:

كان العربي بفطرتة يعشق الحرية، يحيا لها، ويموت من أجلها، فقد نشأ تليقًا لا سلطان لأحد عليه، ويأبى أن يعيش ذليلاً، أو يمس في شرفه وعرضه ولو كلفه ذلك حياته، فقد كانوا يأنفون من الذل ويأبون للضميم والاستصغار والاحتقار.

5 - الوفاء بالعهد وحبهم للصرحة والوضوح والصدق:

كانوا يأنفون من الكذب ويعيبونه، وكانوا أهل وفاء، ولهذا كانت الشهادة باللسان كافية للدخول في الإسلام، ويدل على أنفتهم من الكذب قصة أبي سفيان مع هرقل لما سأله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الحروب بينهم قائمة قال: «لولا الحياء من أن يأتروا علي كذبًا لكذبت عنه».

6- الصبر على المكاره وقوة الاحتمال، والرضا باليسير:

كانوا يقومون من الأكل ويقولون: البطنة تذهب الفطنة، ويعيبون الرجل الأكل الجشع، قال شاعرهم:

إذا مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن ... بأعجلهم إذا أحشع القوم أعجل

وكانت لهم قدرة عجيبة على تحمل المكاره والصبر في الشدائد، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية الجافة، قليلة الزرع والماء، فألفوا اقتحام الجبال الوعرة، والسير في حر الظهيرة، ولم يتأثروا بالحر ولا بالبرد، ولا وعورة الطريق، ولا بعد المسافة، ولا الجوع، ولا الظمأ، ولما دخلوا الإسلام ضربوا أمثلة رائعة في الصبر، والتحمل وكانوا يرضون باليسير، فكان الواحد منهم يسير الأيام مكتفياً بتمرات يقيم بها صلبه، وقطرات من ماء يرطب بها كبده (2).

7 - قوة البدن وعظمة النفس:

واشتهروا بقوة أجسادهم مع عظمة النفس وقوة الروح، وإذا اجتمعت البطولة النفسية إلى البطولة الجسمانية صنعنا العجائب، وهذا ما حدث بعد دخولهم في الإسلام. كما كانوا ينازلون أقرانهم وخصومهم، حتى إذا تمكنوا منهم عفوا عنهم وتركوهم، يأبون أن يجهزوا على الجرحى، وكانوا يرعون حقوق الجيرة، ولا سيما رعاية النساء والمحافظة على العرض.

كانت هذه الفضائل والأخلاق الحميدة رصيذا ضخما في نفوس العرب، فجاء الإسلام فنهاها وقواها، ووجهها وجهة الخير والحق، فلا عجب إذا كانوا انطلقوا من الصحاري كما تنطلق الملائكة الأطهار، فتحوا الأرض، وملئوها إيمانا بعد أن ملئت كفرًا، وعدلا بعد أن ملئت جورًا، وفضائل بعد أن عمتها الرذائل، وخيرا بعد أن طفحت شرا (3).

هذه بعض أخلاق المجتمع الذي نشأ فيه الإنسان العربي فهو أفضل المجتمعات، لهذا اختير رسول الله صلى الله عليه وسلم، واختير له هذا المجتمع العربي، وهذه البيئة النادرة، وهذا الوسط الرفيع مقارنة بالفرس والروم والهنود واليونان.

## هجرة النبي - صلى الله عليه وسلم

فشل خطة المشركين والترتيب النبوي الرفيع للهجرة

أولاً: فشل خطة المشركين لاغتياال النبي صلى الله عليه وسلم:

بعد أن منيت قريش بالفشل في منع الصحابة رضي الله عنهم من الهجرة إلى المدينة على الرغم من أساليبهم الشنيعة والقبيحة فقد أدركت قريش خطورة الموقف، وخافوا على مصالحهم الاقتصادية، وكيانهم الاجتماعي القائم بين قبائل العرب لذلك اجتمعت قيادة قريش في دار الندوة للتشاور في أمر القضاء على قائد الدعوة، وقد تحدث ابن عباس في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْنِيَنَّكَ أَوْ يَخْرُجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (سورة الأنفال، الآية:30) فقال: فتشاورت قريش بمكة فقال بعضهم: إذا أصبح فأثبتوه بالوثائق يريدون النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: أن اخرجوه.

ثانياً: الترتيب النبوي للهجرة:

عن عائشة أم المؤمنين قالت: كان لا يخطئ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة، وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه، أتانا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالهجرة.

في ساعة كان لا يأتي فيها: قالت: فلما رآه أبو بكر، قال: ماجاء رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الساعة إلا لأمر حدث. قالت: فلما دخل، تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أخرج عني من عندك: فقال: يارسول الله، إنما هما ابنتاي، وماذاك، فذاك أبي وأمي! فقال: إنه قد أذن لي في الخروج والهجرة. قالت: فقال أبو بكر: الصحبة يارسول الله؟ قال: الصحبة. قالت: فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أحداً يبكي من الفرح، حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ، ثم قال: يا بني الله، إن هاتين راحلتان قد كنت أعددتكما لهذا، فاستأجرا عبدالله بن أرقط رجلاً من بني الدليل بن بكر، وكانت أمه امرأة من بني سهم بن عمرو، وكان مشركاً- يدلها على الطريق، فدفعنا إليه راحلتيهما فكانتا عنده يرعاها لميعادهما.

وروى البخاري عن عائشة في حديث طويل وفيه: (... قالت عائشة: فبينما نحن يوماً جلوس في بيت أبي بكر في نحر الظهيرة قال قائل لأبي هذا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - متقنعاً، في ساعة لم يكن يأتيها فيها، فقال أبو بكر: فداء له أبي وأمي والله ماجاء به في هذه الساعة إلا أمر، قالت: فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأبي بكر: أخرج من عندك، فقال أبو بكر: إنما هم أهلك قل: فأني قد أذن لي في الخروج فقال أبو بكر: الصحبة بأبي أنت يارسول الله قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: نعم، قال أبو بكر: فخذ بأبي أنت يارسول الله إحد راحلتي هاتين، قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: بالثمن، قالت عائشة: فجهزناهما أحسن الجهاز، وصنعنا لهن سفرة في جراب، فقطمت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، فبذلك سميت ذات النطاق، ثم لحق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر بغار في جبل ثور، فكمنا فيه ثلاث ليلال ببيت عندهما عبدالله بن أبي بكر وهو غلام، شاب، فيدلج من عندهما بسحر، فيصبح مع قريش بمكة كبائت، فلا يسمع أمراً يكتادان به إلا وعاه حتى يأتيهما بخير ذلك حين يختلط الظلام، ويرعى عليهما حين تذهب ساعة من العشاء فيبتان في رسل - هو لين منحتهما ورضيفهما ينق بها عامر بن فهيرة بغلس يفعل ذلك في كل ليلة من تلك الليالي الثلاث، واستأجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر رجلاً من بني الدليل وهو من بني عبد ابن عدي -هادياً خريئاً- والخريت الماهر قد غمس حلفا في آل العاص بن وائل السهمي، وهو على دين كفار قريش، فأمناه فدفعنا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليلال براحتيهما صباح ثلاث، وانطلق معهما عامر بن فهيرة والدليل فأخذ بهم طريق السواحل.

ثالثاً: خروج الرسول - صلى الله عليه وسلم - ووصوله إلى الغار:

لم يعلم بخروج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أمره أن يتخلف حتى يؤدي عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الودائع التي كانت عنده للناس، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وليس بمكة أحد عنده شيء يخشى إلا وضعه عنده، لما يعلم من صدقه وأمانته وكان الميعاد بين الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر رضي الله عنه، فخرجا من خوخة، لأبي بكر في ظهر بيته، وذلك للإمعان في الاستخفاء حتى لا تتبعهما قريش، وتمنعهما من تلك الرحلة المباركة، وقد اتعدا مع الليل على أن يلقاهما عبدالله بن أريقط في غار ثور بعد ثلاث ليلال.

رابعاً: دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - عند خروجه من مكة:

وقد دعا النبي - صلى الله عليه وسلم - عند خروجه من مكة إلى المدينة قائلاً:

(الحمد لله الذي خلقتي ولم أك شيئاً، اللهم أعني على هول الدنيا وبوائق الدهر، ومصائب الليالي والأيام. اللهم أصحبني في سفري، وأخلفني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذللي، وعلى خلقي قوموني وإليك رب فحببني، وإلى الناس فلا تكني رب المستضعفين وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرق له السماوات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلاح عليه أمر الأولين والآخرين، أن تحل علي غضبك، أو تنزل بي سخطك أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمته، وتحول عافيتك وجميع سخطك لك العتبي عندي خير ما استطعت لاحول ولا قوة إلا بك).

ووقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند خروجه بالحزورة في سوق مكة وقال: (والله إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ماخرجت) (الترمذي، كتاب المناقب، باب فضل مكة (5/722)).

ثم انطلق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصاحبه من بطش المشركين، وصر فهم عنهما.

خامساً: عناية الله سبحانه وتعالى ورعايته لرسوله - صلى الله عليه وسلم -:

بالرغم من كل الأسباب التي اتخذها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإنه لم يرتكن إليها مطلقاً، وإنما كان كامل الثقة في الله، عظيم الرجاء في نصره وتأنيده، دائم الدعاء بالصيغة التي علمه الله إياها، قال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ {سورة الإسراء، الآية: 80}.

وفي هذه الآية الكريمة دعاء يعلمه الله لنبيه ليدعوه به، ولتتعلم أمته كيف تدعو الله وكيف تتجه إليه؟ دعاء بصدق المدخل وصدق المخرج، كناية عن صدق الرحلة كلها، بدنها وختامها، أولها وآخرها وما بين الأول والآخر، وللصدق هنا قيمته بمناسبة ما حوله المشركون من فتنته عما أنزله الله عليه ليفتري على الله غيره. وللصدق كذلك ظلاله: ظلال الثبات والاطمئنان والنظافة والإخلاص،

{وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا} قوة وهيبة استعلى بهما على سلطان الأرض وقوة المشركين، وكلمة {مَنْ لَدُنْكَ} تصور القرب والاتصال بالله والاستمداد من عونه مباشرة واللجوء إلى حماه.

سراقة بن مالك يلاحق رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال ابن شهاب: وأخبرني عبدالرحمن بن مالك المدلجي، وهو ابن أخي سراقة بن مالك بن جعشم، أن أباه أخبره، أنه سمع سراقة بن جعشم يقول: جاءنا رسول كفار قريش يجعلون في رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأبي بكر دية كل منهما لمن قتله أو أسره،.... حتى أتيت فرسي فركبتها فعرفتها تقرب بي حتى دنوت منهم فعثرت بي فرسي فخررت عنها، فقامت فأهويت الي كنانتي، فاستخرجت منها الأزرلام، فاستقسمت بها، أضرمهم أم لا، فخرج الذي أكره، فركبت فرسي عصيت الأزرلام ففرب بي حتى إذا سمعت قراءة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو لا يلتفت وأبو بكر يكثر الإلتفات ساخت يدا فرسي في الأرض، حتى بلغنا الركبتين فخررت عنها ثم زرتها فنهضت فلم تكد تخرج يديها، فلما استوت قائمة إذ لأثر يديها عثات ساطع في السماء مثل الدخان، فاستقسمت بالأزرلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقوا فركبت فرسي حتى جنتهم ووقع في نفسي حين لقيت مألقيت من الحبس عنهم أن سيظهر أمر رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم وعرضت عليهم الزاد والمتاع فلم يرزاني ولم يسألاني إلا أن قال: أخف عنا، فسألته أن يكتب لي في كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أديم ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

وكان مما أشتهر عند الناس من أمر سراقة ما ذكره ابن عبدالبر وابن حجر وغيرهما، قال ابن عبدالبر: روى سفيان بن عيينة عن ابي موسى عن الحسن أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لسراقة بن مالك: (كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟) قال: فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها.

**استقبال الأنصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم:**

لما سمع المسلمون بالمدينة بمخرج رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من مكة، كانوا يفتنون كل غداة الى الحرة، فينتظرون حتى يردهم حر الظهيرة، فانقلبوا يوماً بعد ما أطالوا انتظارهم فلما أوا الى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من أطامهم لأمر ينظر إليه فبصر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه مبيضين يزول بهم السراب، فلم يملك اليهودي أن قال بأعلى صوته: يامعشر العرب هذا جدكم الذي تنتظرون، فثار المسلمون الى السلاح فقتلوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بظهر الحرة فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم في بني عوف، وذلك يوم الخميس الأثنين من شهر ربيع الأول، فقام ابو بكر للناس وجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - صامتاً، فطفق من جاء من الأنصار، ممن لم ير رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يحيي أبابكر، حتى أصابت الشمس رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأقبل أبوبكر حتى ظلل عليه بردائه، فعرف الناس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عند ذلك (فلبث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في بني عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة، وأسس المسجد الذي أسس على التقوى وصلى فيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، ثم ركب راحلته.. (صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي (5/77، 78)).

وبعد أن أقام رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المدة التي مكثها بقاء وأراد أن يدخل المدينة أرسل الى الأنصار، فجاءوا الى نبي الله - صلى الله عليه وسلم - (وهم متقلدون سلاحهم، فسلموا عليهما، وقالوا: اركبا أمنين مطاعين، فركب نبي الله - صلى الله عليه وسلم - وأبو بكر وحفو دونهما بالسلاح.

وعند وصوله - صلى الله عليه وسلم - الى المدينة أخذ أهل المدينة يقولون: (جاء نبي الله، جاء نبي الله، صلى الله عليه وسلم -، فأشرفوا ينظرون ويقولون جاء نبي الله).

فكان يوم فرح وابتهاج لم تر المدينة يوماً مثله، ولبس الناس أحسن ملابسهم كأنهم في يوم عيد، ولقد كان حقاً يوم عيد، لأنه اليوم الذي انتقل فيه الاسلام من ذلك الحيز الضيق في مكة الى رحابة الانطلاق والانتشار بهذه البقعة المباركة المدينة، ومنها الى سائر بقائع الأرض.

أهم الأحداث قيل مولد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم.

أراد الله سبحانه وتعالى أن يرحم البشرية ويكرم الإنسانية فحان وقت الخلاص بمبعث الحبيب صلى الله عليه وسلم وقبل أن نشرع في بيان ميلاده الكريم ونشأته العزيزة، ورعاية الله عز وجل له قبل نزول الوحي عليه، وسيرته العطرة قبل البعثة.

سبق مولده الكريم أمور عظيمة دلت على اقتراب استبشار الصباح.

إن من سنن الله في الكون أن الانفراج يكون بعد الشدة، والضياء يكون بعد الظلام، واليسر بعد العسر.

أهم هذه الأحداث:

أولاً: قصة حفر عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم لززم:

ذكر الشيخ إبراهيم العلي في كتابه «صحيح السيرة النبوية» رواية صحيحة في قصة حفر عبد المطلب لززم من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: «قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آتٍ فقال لي: احفر طيبة، قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني.

قال: فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فممت فيه، فجاءني فقال: احفر برة، قال: قلت وما برة؟ قال: ثم ذهب عني فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فممت فيه، فجاءني فقال: احفر المذنونة. قال: قلت: وما المذنونة؟ قال: ثم ذهب فلما كان الغد رجعت إلى



مضحجي، فمنت فيه فجاءني فقال: احفر زمزم. قال: قلت: وما زمزم؟ قال لا تنزف أبداً ولا تدم، تسقي الحجاج الأعظم، وهي بين الفرت والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل.

قال: فلما بين شأنها، ودل على موضعها، وعرف أنه قد صدق، غدا بمعول ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، وليس معه يومئذ ولد غيره، فحفر فيها، فلما بدا لعبد المطلب الطي كبر، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإنما لنا فيها حق، فأشركنا معك فيها. قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم، وأعطيتهم من بينكم، قالوا له: فأنصفنا، فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم، قال: نعم، وكانت بأشراف الشام. فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، فخرجوا والأرض إذ ذاك مغاور، حتى إذا كانوا ببعضها نفذ ماء عبد المطلب وأصحابه، فعضشوا حتى استيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من كانوا معهم فأبوا عليهم، وقالوا: إنا بمفازة وإنا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فقال عبد المطلب: إني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه بما لكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرة ثم وراه، حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعه، فقالوا: نعم ما أمرت به. فحفر كل رجل لنفسه حفرة ثم وعدوا ينتظرون الموت عطشاً، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض، ولا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا، فارتحلوا حتى إذ بعث عبد المطلب راحلته انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه، واستسقوا حتى ملأوا أسقيتهم، ثم دعا قبائل قريش وهم ينظرون إليهم في جميع هذه الأحوال، فقال: هلموا إلى الماء فقد سقانا الله، فجاءوا فشربوا، واستقوا كلهم، ثم قالوا: قد والله قضى لك علينا، والله ما نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبين زمزم.

وقد ورد في فضل ماء زمزم أحاديث كثيرة فمنها، ما رواه مسلم في صحيحه في قصة إسلام أبي ذر - رضي الله عنه - : «إنها طعام طعم».

وروى الدارقطني والحاكم وصححه عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم: «ماء زمزم لما شرب له».

ثانياً: قصة أصحاب الفيل:

هذه الحادثة ثابتة بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وأنت تفاصيلها في كتب السير والتاريخ وذكرها المفسرون في كتبهم. قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ - أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ - وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ - تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ) [الفيل: 1-5].

وجاء في السيرة النبوية لأبي حاتم ما يلي: «كأن من شأن الفيل أن ملكاً كان باليمن غلب عليها، وكان أصله من الحبشة يقال له أبرهة، بنى كنيسة بصنعاء فسمها الفليس، وزعم أنه بصرف إليها حج العرب، وحلف أن يسير إلى الكعبة فيهدمها، فخرج ملك من ملوك حمير فيمن أطاعه من قومه، يقال له ذو نفر فقاتله، فهزمه أبرهة وأخذه، فلما أتى به قال له ذو نفر: أيها الملك لا تقتلني فإن استقيتني خير لك من قتلي، فاستبقاه، وأوثقه، ثم خرج سائراً يريد الكعبة حتى إذا دنا من بلاد خثعم، خرج إليه النفييل بن حبيب الخثعمي ومن اجتمع إليه من قبائل اليمن فقاتلوه فهزمهم وأخذ النفييل، فقال النفييل: أيها الملك. إني عالم بأرض العرب فلا تقتلني، وهاتان يداي على قومي بالسمع والطاعة، فاستبقاه وخرج معه يده حتى إذا بلغ الطائف خرج إليه مسعود بن معتب في رجال ثقيف فقال: أيها الملك نحن عبيد لك ليس لك عندنا خلاف، وليس بيننا وبينك الذي تريد -يعنون اللات- إنما تريد البيت الذي بمكة، نحن نبعث معك من يدلك عليه، فبعثوا معه مولى لهم يقال له أبو رغال فخرج معهم حتى إذا كان بالمغمس مات أبو رغال وهو الذي رجم قبره، وبعث أبرهة من المغمس رجلاً، يقال له الأسود بن مقصود على مقدمة خيله، فجمع إليه أهل الحرم، وأصاب لعبد المطلب مانتى بعير بالأرك، ثم بعث أبرهة حنطة الحميري إلى أهل مكة فقال: سل عن شريفها ثم أبلغه أني لم أت لقتال، إنما جئت لأهدم هذا البيت، فانطلق حنطة حتى دخل مكة فلقى عبد المطلب بن هاشم فقال: إن الملك أرسلني إليك ليخبرك أنه لم يأت لقتال إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت ثم الانصراف عنكم، فقال عبد المطلب: ما عندنا له قتال، فقال: سنخلي بينه وبين البيت، فإن خلى الله بينه وبينه فوالله ما لنا به قوة، قال: فانطلق معي إليه، قال: فخرج معه حتى قدم المعسكر وكان «ذو نفر» صديقاً لعبد المطلب فاتاه فقال: يا ذا نفر هل عندكم من غناء فيما نزل بنا؟ فقال: ما غناء رجل أسير لا يأمن من أن يقتل بكرة أو عشية، ولكن سأبعث لك إلى أنيس سانس الفيل فأمره أن يصنع لك عند الملك ما استطاع من خير، ويعظم خطرك ومنزلتك عنده، قال: فأرسل إلى أنيس فاتاه فقال: إن هذا سيد قريش صاحب عين مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في الجبال، وقد أصاب له الملك مانتى بعير، فإن استطعت أن تنفعه فانفعه، فإنه صديق لي. فدخل أنيس على أبرهة فقال: أيها الملك! هذا سيد قريش وصاحب عين مكة الذي يطعم الناس في السهل والوحوش في الجبال يستأذن عليك وأنه أحب أن تأذن له، فقد جاءك غير ناصب لك ولا مخالف عليك، فأذن له وكان عبد المطلب رجلاً عظيماً جسيماً وسيماً، فلما رآه أبرهة عظمه وأكرمه، وكره أن يجلس معه على سريره وأن يجلس تحته، فهبط إلى البساط فجلس عليه معه، فقال له عبد المطلب: أيها الملك إنك قد أصبت لي مالا عظيماً فاردده علي، فقال له: لقد أعجبتني حين رأيك ولقد زهدت فيك، قال: ولم؟ قال: جئت إلى بيت هو دينك ودين أبائك وعصمتكم ومنعتكم فأهدمته فلم تكلمني فيه، وتكلمني في مانتى بعير لك؟ قال: أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمعنه، قال: ما كان ليمعنه مني، قال: فأنت وذاك، قال: فأمر بابله

فردت عليه، ثم خرج عبد المطلب وأخبر قريش الخبر وأمرهم أن يتفرقوا في الشعاب، وأصبح أبرهة بالمغمس قد تهباً للدخول وعباً جيشه، وقرب فيله وحمل عليه ما أراد أن يحمل وهو قائم، فلما حركه وقف وكاد أن يرمزم إلى الأرض فيبيرك، فضر به بالمعول في رأسه فأبى، فادخلوا محاجن لهم تحت مراقه ومرافقه فأبى، فوجهوه إلى اليمن فهول، فصرفوه إلى الحرم فوقف، ولحق الفيل بجبل من تلك الجبال، فأرسل الله الطير من البحر كاليلسان مع كل طير ثلاثة أحجار: حجران في رجليه وحجر في منقاره، ويحملن أمثال الحمص والعنص من الحجارة، فإذا غشين القوم أرسلنها عليهم، فلم تصب تلك الحجارة أحداً إلا هلك وليس كل القوم أصيب فذلك قوله تعالى: ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ - أَلَمْ يَجْعَلْ كُذْبُهُمْ فِي تَضَلِيلٍ - وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ - تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ - فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ) [الفيل: 1-5] وبعث الله على أبرهة داء في جسده، ورجعوا سراعا يتساقطون في كل بلد، وجعل أبرهة تتساقط أنامله، كلما سقطت أنملة أتبعها مدّة من قيح ودم، فانتهى إلى اليمن وهو مثل فرخ الطير فيمن بقي من أصحابه، ثم مات.

دروس من حادثة الفيل:

- 1- بيان شرف الكعبة، وكيف أن مشركي العرب كانت تعظمه وتقده، ولا يقدمون عليه شيئاً، وتعود هذه المنزلة إلى بقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.
- 2- حسد النصارى وحقدهم على مكة وعلى العرب: الذين يعظمون هذا البيت، ولذلك أراد أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله ببناء كنيسة القليس، وعلى الرغم من استعماله أساليب الترغيب والترهيب، إلا أن العرب امتنعوا ووصل الأمر إلى مده بأن أحدث في كنيسة القليس أحد الأعراب.
- 3- حقيقة المعركة بين الله وأعدائه: في قول عبد المطلب زعيم مكة: «سنخلي بينه وبين البيت فإن خلى الله بينه وبينه، فوالله ما لنا به قوة» وهذا تقرير دقيق لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه، فمهما كانت قوة العدو وحشوده، فإنها لا تستطيع الوقوف لحظة واحدة أمام قدرة الله وبطشه ونقمة، فهو سبحانه واهب الحياة وسالها في أي وقت شاء.
- 4- حفظ الله للبيت العتيق: وهي أن الله لم يقدر لأهل الكتاب -أبرهة وجنوده - أن يدمروا البيت الحرام أو يسيطروا على الأرض المقدسة، حتى والشرك يدنس، والمشركون هم سدنته ليبقى هذا البيت عتيقاً من سلطان المتسلطين، مصوناً من كيد الكائدين.
- 5- جعل الحادثة تاريخاً للعرب: استعظم العرب ما حدث لأصحاب الفيل، فأرخوا به، وقالوا وقع هذا عام الفيل وولد فلان عام الفيل، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السنين، وعام الفيل صادف عام 570م.

#### الدعوة جهاراً

أول أمر بإظهار الدعوة

لما تكونت جماعة من المؤمنين تقوم على الأخوة والتعاون، وتتحمل عبء تبليغ الرسالة وتمكينها من مقامها نزل الوحي يكلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعالجة الدعوة، ومجابهة الباطل بالحسنى .  
وأول ما نزل بهذا الصدد قوله تعالى: { وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ } [ الشعراء : 214 ] ، وقد ورد في سياق ذكرت فيه أولاً قصة موسى عليه السلام، من بداية نبوته إلى هجرته مع بني إسرائيل، وقصة نجاتهم من فرعون وقومه، وإغراق آل فرعون معه، وقد اشتملت هذه القصة على جميع المراحل التي مر بها موسى عليه السلام، خلال دعوة فرعون وقومه إلى الله .  
وكان هذا التفصيل جيء به مع أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بجهر الدعوة إلى الله؛ ليكون أمامه وأمام أصحابه مثال لما سيلقونه من التكذيب والاضطهاد حينما يجهرون بالدعوة، وليكونوا على بصيرة من أمرهم منذ البداية .  
الدعوة في الأقربين

ودعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عشيرته بني هاشم بعد نزول هذه الآية، فجاءوا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف، فكانوا نحو خمسة وأربعين رجلاً . فلما أراد أن يتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم بادره أبو لهب وقال : هؤلاء عمومتك وبنو عمك فتكلم، ودع الصباة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أبيك، وإن أقيمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش، وتمدهم العرب، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئت به، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتكلم في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : ( الحمد لله، أحمده وأستعينه، وأومن به، وأتوكل عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ) . ثم قال : ( إن الرائد لا يكذب أهله، والله الذي لا إله إلا هو، إني رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس عامة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، وإنها الجنة أبداً أو النار أبداً ) .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقاً لحديثك . وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أني أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت به . فوالله، لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب : والله لنمنعه ما بقينا .

على جبل الصفا

وبعد تأكد النبي صلى الله عليه وسلم من تعهد أبي طالب بحمايته وهو يبلغ عن ربه، صعد النبي صلى الله عليه وسلم ذات يوم على الصفا، فعلا أعلاها حجراً، ثم هتف : ( يا صباحاه )

وكانت كلمة إنذار تخبر عن هجوم جيش أو وقوع أمر عظيم. ثم جعل ينادى بطون قريش، ويدعوهم قبائل قبائل: ( يا بني فهر، يا بني عدى، يا بني فلان، يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب ) .

فلما سمعوا قالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد. فأسرع الناس إليه، حتى إن الرجل إذا لم يستطع أن يخرج إليه أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش. فلما اجتمعوا قال: ( أرايتم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدّقِي؟ ) . قالوا: نعم، ما جربنا عليك كذباً، ما جربنا عليك إلا صدقاً .

قال: ( إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، إنما مثلي ومثلكم مثل رجل رأي العَدُوَّ فانطلق يَرَبِّياً أهله ) ( أي يتطلع وينظر لهم من مكان مرتفع لئلا يدهمهم العدو ) ( خشى أن يسبقوه فجعل ينادى: يا صباحاه ) ثم دعاهم إلى الحق، وأنذرهم من عذاب الله، فخص وعم فقال:

( يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم من الله، أنقذوا أنفسكم من النار، فإني لا أملك لكم من الله ضرراً ولا نفعاً، ولا أغني عنكم من الله شيئاً ) .

غير أن لكم رحماً سألُبُّها بِلألِها ) أي أصلها حسب حقها . ولما تم هذا الإنذار انفض الناس وتفرقوا، ولا يذكر عنهم أي ردة فعل، سوى أن أبا لهب واجه النبي صلى الله عليه وسلم بالسوء، وقال: تبا لك سائر اليوم، ألهذا جمعنا؟ فنزلت: { تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ { [ سورة المسد: 1 ] .

كانت هذه الصيحة العالية هي غاية البلاغ، فقد أوضح الرسول صلى الله عليه وسلم لأقرب الناس إليه أن التصديق بهذه الرسالة هو حياة الصلوات بينه وبينهم، وأن عصبة القرابة التي يقوم عليها العرب ذابت في حرارة هذا الإنذار الآتي من عند الله .

ولم يزل هذا الصوت يرتج دويه في أرجاء مكة حتى نزل قوله تعالى: { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ } [ الحجر: 94 ] ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بجهر بالدعوة إلى الإسلام في مجامع المشركين ونواديهم، يتلو عليهم كتاب الله، ويقول لهم ما قالته الرسل لأقوامهم: { يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ } [ الأعراف: 59 ] ، وبدء يعبد الله تعالى أمام أعينهم، فكان يصلى بفناء الكعبة نهراً جهاراً وعلى رؤوس الأشهاد .

وقد نالت دعوته مزيداً من القبول، ودخل الناس في دين الله واحداً بعد واحد . وحصل بينهم وبين من لم يسلم من أهل بيئتهم تباغض وتباعد وعناد واشمأزت قريش من كل ذلك، وساء لهم ما كانوا يبصرون .

المجلس الاستشاري لكف الحجاج عن استماع الدعوة.

وخلال هذه الأيام أهم قريشاً أمر آخر، وذلك أن الجهر بالدعوة لم يمض عليه إلا أيام أو أشهر معدودة حتى قرب موسم الحج، وعرفت قريش أن وفود العرب ستقدم عليهم، فرأت أنه لا بد من كلمة يقولونها للعرب، في شأن محمد صلى الله عليه وسلم حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة، فقال لهم الوليد: أجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت فقل، وأقم لنا رأياً نقول به . قال: بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا: نقول: كاهن . قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان فما هو بزَمْرَمَةِ الكاهن ولا سجعته . قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، ما هو بخَفْهِ ولا تَخَالِجِهِ ولا وسوسته . قالوا: فنقول: شاعر . قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رَجَزَهُ وَهَزَجَهُ وَقَرِيضَهُ وَمَقْبُوضَهُ وَمُسْوَطَهُ، فما هو بالشعر، قالوا: فنقول: ساحر . قال: ما هو بساحر، لقد رأينا الساحر وسحرهم، فما هو بنَفْثِهِمْ ولا عَفْهِمْ . قالوا: فما نقول؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، [ وإن عليه لطلاوة ] وإن أصله لعنق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر . جاء بقول هو سحر، يفرق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك . وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا في تنفيذه، فجلسوا بسبل الناس حين قدموا للموسم، لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره .

أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج يتبع الناس في منازلهم وفي عُكَاظٍ وَمَجَنَّةٍ وَذِي الْمَجَازِ، يدعوهم إلى الله، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنه صابئ كذاب .

وأدى ذلك إلى أن صدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر ذكره في بلاد العرب كلها .

#### أساليب شتى لمجابهة الدعوة

ولما فرغت قريش من الحج فكرت في أساليب تقضى بها على هذه الدعوة في مهدها . وتتلخص هذه الأساليب فيما يلي:

1- السخرية والتحقير، والاستهزاء والتكذيب والتضحيك:

قصداً بها تخذيل المسلمين، وتوهين قواهم المعنوية، فرموا النبي صلى الله عليه وسلم بتهم هازلة، وشتائم سفيهة، فكانوا ينادونه بالمجنون { وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ } [ الحجر: 6 ] ، ويصومونه بالسحر والكذب { وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ } [ ص: 4 ] ، وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ملتهمة ناقمة، وعواطف منفعة هانجة { وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ } [ القلم: 51 ] ، وكان إذا جلس وحوله

المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم وقالوا: هؤلاء جلساؤه { مَنِ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِّنْ بَيِّنَاتٍ } [ الأنعام: 53 ]

وقد أكثروا من السخرية والاستهزاء وزادوا من الطعن والتضحيك شيئاً فشيئاً حتى أثر ذلك في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى: { وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ } [ الحجر: 97 ] ، ثم ثبته الله وأمره بما يذهب بهذا الضيق فقال: { فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [ الحجر: 98، 99 ] .

## 2- إثارة الشبهات وتكثيف الدعايات الكاذبة :

وقد أكثرنا من ذلك وتفننوا فيه بحيث لا يبقى لعامة الناس مجال للتدبر في دعوته والتفكير فيها، فكانوا يقولون عن القرآن : { أَضْعَافُ أُحْلَامٍ } [ الأنبياء : 5 ] يراها محمد بالليل ويتلوها بالنهار، ويقولون : { بَلِ افْتَرَاهُ } من عند نفسه ويقولون : { إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ } وقالوا : { إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ } [ الفرقان : 4 ] أي اشترك هو وزملاؤه في اختلاقه . { وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا } [ الفرقان : 5 ] وأحياناً قالوا : إن له جنًا أو شيطانًا ينزل عليه كما ينزل الجن والشياطين على الكهان . قال تعالى ردًا عليهم : { هَلْ أُنَبِّئُكَ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلُ الشَّيَاطِينَ نَزَّلُوا عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ } [ الشعراء : 221، 222 ] ، أي إنها تنزل على الكذاب الفاجر المتلطح بالذنوب، وما جربتم على كذبًا، وما وجدتم في فسقًا، فكيف تجعلون القرآن من تنزيل الشيطان .

## 3 - الحيلولة بين الناس وبين سماعهم القرآن، ومعارضته بأساطير الأولين :

كان المشركون بجنب إثارة هذه الشبهات يحولون بين الناس وبين سماعهم القرآن ودعوة الإسلام بكل طريق يمكن، فكانوا يطردون الناس ويثيرون الشغب والضوضاء ويتغنون ويلعبون، إذا رأوا أن النبي صلى الله عليه وسلم يتهايا للدعوة، أو إذا رأوه يصلح ويتلو القرآن . قال تعالى : { وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ } [ فصلت : 26 ] حتى إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتمكن من تلاوة القرآن عليهم في مجامعهم ونواديبهم إلا في أواخر السنة الخامسة من النبوة، وذلك أيضًا عن طريق المفاجأة، دون أن يشعروا بقصده قبل بداية التلاوة .

وكان النضر بن الحارث، أحد شياطين قريش قد قدم الحيرة، وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسفنديار، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسًا للتذكير بالله والتحذير من نعمته خلفه النضر ويقول : أنا و الله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول : بماذا محمد أحسن حديثًا مني . وفي رواية عن ابن عباس أن النضر كان قد اشترى قَبِيئَةً، فكان لا يسمع بأحد يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قبيئته، فيقول : أطعميه واسقيه وغنيه، هذا خير مما يدعوك إليه محمد، وفيه نزل قوله تعالى : { وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ } [ لقمان : 6 ] .

## الاضطهادات

أعمل المشركون الأساليب التي ذكرناها شيئًا فشيئًا لإحباط الدعوة بعد ظهورها في بداية السنة الرابعة من النبوة، ومضت على ذلك أسابيع وشهور وهم مقتصرون على هذه الأساليب لا يتجاوزونها إلى طريق الاضطهاد والتعذيب، ولكنهم لما رأوا أن هذه الأساليب لم تجد نفعًا في إحباط الدعوة الإسلامية استشاروا فيما بينهم، فقرروا القيام بتعذيب المسلمين وقتلتهم عن دينهم، فأخذ كل رئيس يعذب من دان من قبيلته بالإسلام، وانقض كل سيد على من اختار من عبيده طريق الإيمان .. كان أبو جهل إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ومنعة أئبه وأخزاه، وأوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال، والجاه، وإن كان ضعيفًا ضربه وأغرى به .

وكان عم عثمان بن عفان يلفه في حصير من ورق النخيل ثم يدخنه من تحته .

ولما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه منعه الطعام والشراب، وأخرجته من بيته، وكان من أنعم الناس عيشًا، فَتَحَشَّفَ جِلْدَهُ تَحْشِفَ الْحِيَةَ .

وكان صهيب بن سنان الرومي يُعَذَّبُ حتى يفقد وعيه ولا يدري ما يقول .

وكان بلال مولى أمية بن خلف الجمحي، فكان أمية يضع في عنقه حبلاً، ثم يسلمه إلى الصبيان، يطوفون به في جبال مكة، ويجرونه حتى كان الحبل يؤثر في عنقه، وهو يقول : أَحَدٌ أَحَدٌ، وكان أمية يشده شدًا ثم يضربه بالعصا، ويلجئه إلى الجلوس في حر الشمس، كما كان يكرهه على الجوع . وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجها إذا حميت الظهيرة، فيطره على ظهره في الرمضاء في بطحاء مكة، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد، وتعيد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك : أحد، أحد، ويقول : لو أعلم كلمة هي أعيظ لكم منها لقلتها . ومر به أبو بكر يوماً وهم يصنعون ذلك به فاشتراه بـغلام أسود، وقيل : بسبع أواق أو بخمس من الفضة، وأعتقه .

وكان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبني مخزوم، أسلم هو وأبوه وأمه، فكان المشركون - وعلى رأسهم أبو جهل - يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرًا . ومر بهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم يعذبون فقال : ( صبرًا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة ) ، فمات ياسر في العذاب، وطعن أبو جهل سمية - أم عمار - في قلبها بحربة فماتت، وهي أول شهيدة في الإسلام، وهي سمية بنت خياط مولاة أبي حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، وكانت عجوزًا كبيرة ضعيفة . وشدوا العذاب على عمار بالحر تارة، وبوضع الصخر الأحمر على صدره أخرى، وبغضه في الماء حتى كان يفقد وعيه . وقالوا له : لا نتركك حتى تسب محمدًا، أو تقول في اللات والعزى خبيرًا، فوافقهم على ذلك مكرهاً، وجاء باكياً معترًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم . فأنزل الله : { مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَن أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ } الآية [ النحل : 106 ] .

وممن عذب من العبيد : عامر بن فهيرة، كان يعذب حتى يفقد وعيه ولا يدري ما يقول .

واشترى أبو بكر رضي الله عنه هؤلاء الإماء والعبيد رضي الله عنهم وعنهن أجمعين، فاعتقهم جميعًا . وقد عاتبه في ذلك أبوه أبو قحافة وقال : أراك تعتق رقابًا ضعافًا، فلو أعتقت رجالًا جلدًا لمنعوك . قال : إني أريد وجه الله . فأنزل الله قرآنًا مدح فيه أبا بكر، وذم أعداءه . قال تعالى : { فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى } [ الليل : 14 : 16 ] وهو أمية بن خلف،

ومن كان على شاكلته { وَسَجَّيْنَهَا الْأَثَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى } [ الليل : 17 : 21 ] وهو أبو بكر الصديق رضي الله عنه .

فلم يعلموا بأحد دخل في الإسلام إلا وتصدوا له بالأذى والنكال، وكان ذلك سهلاً ميسوراً بالنسبة لضعفاء المسلمين، ولا سيما العبيد والإماء منهم، فلم يكن من يغضب لهم ويحميهم، بل كانت السادة والرؤساء هم أنفسهم يقومون بالتعذيب ويغرون الأوباش، ولكن بالنسبة لمن أسلم من الكبار والأشراف كان ذلك صعباً جداً، إذ كانوا في عز ومنعة من قومهم، ولذلك قلما كان يجتريء عليهم إلا أشراف قومهم، مع شيء كبير من الحيطة والحذر .

#### موقف المشركين من رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأما بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه صلى الله عليه وسلم كان رجلاً شهماً وقوراً ذا شخصية فذة، تتعاضمه نفوس الأعداء والأصدقاء بحيث لا يقابل مثله إلا بالإجلال والتشريف، ولا يجتريء على اقتراح الدنايا والردائل ضده إلا أراذل الناس وسفهاؤهم، ومع ذلك كان في منعة أبي طالب، وأبو طالب من رجال مكة المعدودين، كان معظماً في أصله، معظماً بين الناس، فكان من الصعب أن يجسر أحد على إخبار ذمته واستباحة بيضته، إن هذا الوضع أقلق قريشاً وأقامهم وأقعدهم، ودعاهم إلى تفكير سليم يخرجهم من المأزق دون أن يقعوا في محذور لا يحمد عقباه، وقد هداهم ذلك إلى أن يختاروا سبيل المفاوضات مع المسئول الأكبر : أبي طالب، ولكن مع شيء كبير من الحكمة والجديّة، ومع نوع من أسلوب التحدي والتهديد الخفي حتى يذعن لما يقولون .

وفد قريش إلى أبي طالب

قال ابن إسحاق : مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا : يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحوالنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكفه عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكفكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه، يظهر دين الله ويدعو إليه . ولكن لم تصبر قريش طويلاً حين رآته صلى الله عليه وسلم ماضياً في عمله ودعوته إلى الله، بل أكثرت ذكره وتذامرت فيه، حتى قررت مراجعة أبي طالب بأسلوب أغلظ وأقسى من السابق .

قريش يهددون أبا طالب

وجاءت سادات قريش إلى أبي طالب فقالوا له : يا أبا طالب، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا، وإننا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنته عنا، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحوالنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين .

عظّم على أبي طالب هذا الوعيد والتهديد الشديد، فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له : يا بن أخي، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا، فأبق عليّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمه خاذله، وأنه ضغف عن نصرته، فقال : ( يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر - حتى يظهره الله أو أهلك فيه - ما تركته ) ، ثم استعبر وبكى، وقام، فلما ولى ناداه أبو طالب، فلما أقبل قال له : اذهب يا بن أخي، فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبداً

اعتداءات على رسول الله صلى الله عليه وسلم

واخترقت قريش ما كانت تتعاضمه وتحترمه منذ ظهرت الدعوة على الساحة، فقد صعّب على غطرتها وكبريائها أن تصبر طويلاً، فمدت يد الاعتداء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مع ما كانت تأتيه من السخرية والاستهزاء والتشوية والتلبيس والتشويش وغير ذلك . وكان من الطبيعي أن يكون أبو لهب في مقدمتهم وعلى رأسهم، فإنه كان أحد رؤوس بني هاشم، فلم يكن يخشى ما يخشاه الآخرون، وكان عدواً لدوداً للإسلام وأهله، وقد وقف موقف العداء من رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ اليوم الأول، واعتدى عليه قبل أن تفكر فيه قريش، وقد أسلفنا ما فعل بالنبي صلى الله عليه وسلم في مجلس بني هاشم، وما فعل على الصفا . وكان أبو لهب قد زوج ولديه عتبة وعتيبة بينتي رسول الله صلى الله عليه وسلم رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة حتى طلقاهما .

ولما مات عبد الله - الابن الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم - استبشر أبو لهب وذهب إلى المشركين يبشروهم بأن محمداً صار أبتراً .

وقد أسلفنا أن أبا لهب كان يجول خلف النبي صلى الله عليه وسلم في موسم الحج والأسواق لتكذيبه، وقد روى طارق بن عبد الله المحاربي ما يفيد أنه كان لا يقتصر على التكذيب بل كان يضربه بالحجر حتى يدمى عقباه .

وكانت امرأة أبي لهب - أم جميل أروى بنت حرب بن أمية، أخت أبي سفيان - لا تقل عن زوجها في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد كانت تحمل الشوك، وتضعه في طريق النبي صلى الله عليه وسلم وعلى بابها ليلاً، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدس، وتؤجج نار الفتنة، وتثير حرباً شعواء على النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب .

ولما سمعت ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فهرٌ [ أي بمقدار ملاء الكف ] من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت : يا أبا بكر، أين صاحبك ؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لصربت بهذا الفهر فاه، ثم انصرفت، فقال أبو بكر : يا رسول الله، أما تراها رأيتك ؟ فقال : ( ما رأيتني، لقد أخذ الله ببصرها عني ) .

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه . وفيه نزل : { وَيَلُّ لَكُلُّ هُمْزَةٍ لُحْمَةٍ } [ سورة الهمزة : 1 ] قال ابن هشام : الهمزة : الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه، ويغمز به . واللمزة : الذي يعيب الناس سراً، ويؤذيهم .

الهجرة الأولى إلى الحبشة

كانت بداية الاعتداءات في أواسط أو أواخر السنة الرابعة من النبوة، بدأت ضعيفة، ثم لم تزل تشتد يوماً فيوماً وشهراً فشهرًا، حتى تفاقمت في أواسط السنة الخامسة، ونبا بهم المقام في مكة، وأخذوا يفكرون في حيلة تنجيهم من هذا العذاب الأليم، وفي هذه الظروف نزلت سورة الزمر تشير إلى اتخاذ سبيل الهجرة، وتعلن بأن أرض الله ليست بضيقه { لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ } [ الزمر : 10 ]

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد علم أن أصحابه النجاشي ملك الحبشة ملك عادل، لا يظلم عنده أحد، فأمر المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فراراً بدينهم من الفتن .

وفي رجب سنة خمس من النبوة هاجر أول فوج من الصحابة إلى الحبشة . كان مكوناً من اثني عشر رجلاً وأربع نساء، رئيسهم عثمان بن عفان، ومعه زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيهما : ( إنهما أول بيت هاجر في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط عليهما السلام )

كان رحيل هؤلاء تسلاً في ظلمة الليل - حتى لا تظن لهم قريش - خرجوا إلى البحر ويمموا ميناء شعيبية، وقبضت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفطنت لهم قريش، فخرجت في آثارهم، لكن لما بلغت إلى الشاطئ كانوا قد انطلقوا آمنين، وأقام المسلمون في الحبشة في أحسن جوار .

سجود المشركين مع المسلمين وعودة المهاجرين

وفي رمضان من نفس السنة خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحرم، وفيه جمع كبير من قريش، فيهم ساداتهم وكبارؤهم، وقام فيهم، وفاجأهم بتلاوة سورة النجم، ولم يكن أولئك الكفار سمعوا كلام الله من قبل؛ لأنهم كانوا مستمرين على ما تواصلى به بعضهم بعضاً، من قولهم : { لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَنَّكُمْ تَعْلُونَ } [ فصلت : 26 ] فلما باعتهم بتلاوة هذه السورة، وفرغ آذانهم كلام إلهي خلاب، وكان أروع كلام سمعوه قط، أخذ مشاعرهم، ونسوا ما كانوا فيه فما من أحد إلا وهو مصغ إليه، لا يخطر بباله شيء سواه، حتى إذا تلا في خواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب، ثم قرأ : { فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا } [ النجم : 62 ] ثم سجد، لم يتمالك أحد نفسه حتى خر ساجداً . وفي الحقيقة كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين، فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين .

وسقط في أيديهم لما أحسوا أن جلال كلام الله لوى زمامهم، فارتكبوا عين ما كانوا يبذلون قصارى جهدهم في محوه وإفناؤه، وقد توالى عليهم اللوم والعتاب من كل جانب، ممن لم يحضر هذا المشهد من المشركين، وعند ذلك كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وافتروا عليه أنه عطف على أصنامهم بكلمة تقدير، وأنه قال عنها ما كانوا يرددونه هم دائماً من قولهم : ( تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهم لترتجى ) ، جاءوا بهذا الإفك المبين ليعتذروا عن سجودهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، وليس يستغرب هذا من قوم كانوا يألفون الكذب، ويطلقون الدس والافتراء .

وبلغ هذا الخبر إلى مهاجري الحبشة، ولكن في صورة تختلف تماماً عن صورته الحقيقية، بلغهم أن قريشاً أسلمت، فرجعوا إلى مكة في شوال من نفس السنة، فلما كانوا دون مكة ساعة من نهار وعرفوا جليلة الأمر رجع منهم من رجع إلى الحبشة، ولم يدخل في مكة من سائرهم أحد إلا مستخفياً، أو في جوار رجل من قريش .

ثم اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش، وسطت بهم عشائرهم، فقد كان صعب على قريش ما بلغها عن النجاشي من حسن الجوار، ولم ير رسول الله صلى الله عليه وسلم بدا من أن يشير على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى .

الهجرة الثانية إلى الحبشة

واستعد المسلمون للهجرة مرة أخرى، وعلى نطاق أوسع، ولكن كانت هذه الهجرة الثانية أشق من سابقتها، فقد تيقظت لها قريش وقررت إحباطها، بيد أن المسلمين كانوا أسرع، ويسر الله لهم السفر، فانحازوا إلى نجاشي الحبشة قبل أن يدركوا .

وفي هذه المرة هاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان فيهم عمار، فإنه يشك فيه، وثمانية عشرة أو تسع عشرة امرأة . مكيدة قريش بمهاجري الحبشة

عز على المشركين أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ودينهم، فاخترتوا رجلين جليدين لبيبين، وهما : عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة - قبل أن يسلموا - وأرسلوا معهما الهدايا المستطرفة للنجاشي ولبطارقتة، وبعد أن ساق الرجلان تلك الهدايا إلى البطارقة، وزوداهم بالحجج التي يطرد بها أولئك المسلمون، وبعد أن اتفقت البطارقة أن يشيروا على النجاشي بإقسانهم، حضرا إلى النجاشي، وقدموا له الهدايا ثم كلماه فقالا له :

أيها الملك، إنه قد ضوى إلى بلدك غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين ابتدعه، لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشرف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم؛ لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبواهم فيه .

وقالت البطارقة : صدقا أيها الملك، فأسلمهم إليهما، فليردهم إلى قومهم وبلادهم .

ولكن رأي النجاشي أنه لا بد من تمحيص القضية، وسماع أطرافها جميعاً . فأرسل إلى المسلمين، ودعاهم، فحضروا، وكانوا قد أجمعوا على الصدق كأننا ما كان . فقال لهم النجاشي : ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني ولا دين أحد من هذه الملل ؟

قال جعفر بن أبي طالب - وكان هو المتكلم عن المسلمين : أيها الملك كنا قومًا أهل جاهلية؛ نعبد الأصنام ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل منا القوى الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - فعدد عليه أمور الإسلام - فصدقناه، وأما به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومنا، فعدبونا وقتلونا عن ديننا؛ ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك .

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟ فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشي : فاقراه علي، فقرأ عليه صدرًا من { كهيعص } فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون - يخاطب عمرو بن العاص وصاحبه - فخرجا، فلما خرجا قال عمرو بن العاص لعبد الله بن أبي ربيعة : والله لأتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم . فقال له عبد الله بن أبي ربيعة : لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا قد خالفونا، ولكن أصر عمرو على رأيه .

فلما كان الغد قال للنجاشي : أيها الملك، إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسل إليهم النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح ففرعوا، ولكن أجمعوا على الصدق، كأننا ما كان، فلما دخلوا عليه وسألهم، قال له جعفر : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم : هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فأخذ النجاشي عوداً من الأرض ثم قال : والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، فتناخرت بطارقتة، فقال : وإن نَحَرْتُمُ والله . ثم قال للمسلمين : اذهبوا فأنتم شُبُومٌ بأرضي - والشيوم : الأثمنون بلسان الحبشة - من سَبِكُمُ غَرِمٌ، من سبكم غرم، من أحب أن لي دَبْرًا من ذهب وإنني أذيت رجلاً منكم - والدير : الجبل بلسان الحبشة .

ثم قال لحاشيته : ردوا عليهم هداياهما فلا حاجة لي بهما، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي، فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه .

قالت أم سلمة التي تروى هذه القصة : فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار . هذه رواية ابن إسحاق، وذكر غيره أن وفادة عمرو بن العاص إلى النجاشي كانت بعد بدر، وجمع بعضهم بأن الوفادة كانت مرتين . ولكن الأسئلة والأجوبة التي ذكروا أنها دارت بين النجاشي وبين جعفر بن أبي طالب في الوفادة الثانية هي نفس الأسئلة والأجوبة التي ذكرها ابن إسحاق هنا، ثم إن تلك الأسئلة تدل بفحواها أنها كانت في أول مرافعة قدمت إلى النجاشي .

الشدّة في التعذيب ومحاولة القضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليستأصلوا جذور الفتنة التي أقضت مضاجعهم، حسب زعمهم . ولما أخفق المشركون في مكيدتهم، وفشلوا في استرداد المهاجرين استشاطوا غضباً، وكادوا يتميزون غيظاً، فاشتدت ضراوتهم وانفضوا على بقية المسلمين، ومدوا أيديهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسوء، وظهرت منهم تصرفات تدل على أنهم أرادوا القضاء على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ليستأصلوا جذور الفتنة التي أقضت مضاجعهم، حسب زعمهم .

أما بالنسبة للمسلمين فإن الباقيين منهم في مكة كانوا قليلين جداً، وكانوا إما ذوى شرف ومنعة، أو محتمين بجوار أحد، ومع ذلك كانوا يخفون إسلامهم ويتعدون عن أعين الطغاة بقدر الإمكان، ولكنهم مع هذه الحيطة والحذر لم يسلموا كل السلامة من الأذى والخسف والجور .

ومما روت لنا كتب السنة والسيرة من الأحداث التي تشهد القرائن بأنها وقعت في هذه الفترة : أن عتيبة بن أبي لهب أتى يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أنا أكفر بـ { وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى } [ النجم : 1 ] وبالذي { تَمَّ دَنَا فَتَدَلَّى } [ النجم : 8 ] ثم تسلط عليه بالأذى، وشق قميصه، وتقل في وجهه صلى الله عليه وسلم، إلا أن البزاق لم يقع عليه، وحينئذ دعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم وقال : ( اللهم سلط عليه كلباً من كلابك ) ، وقد استجيب دعاؤه صلى الله عليه وسلم، فقد خرج عتيبة إثر ذلك في نفر من قريش، فلما نزلوا بالزرقاء من الشام طاف بهم الأسد تلك الليلة، فجعل عتيبة يقول : يا ويل أخي هو والله أكلى كما دعا محمد علي، قتلتني وهو بمكة، وأنا بالشام، ثم جعلوه بينهم، وناموا من حوله، ولكن جاء الأسد وتخطاهم إليه، فضغم رأسه . ومنها : ما ذكر أن عتبة بن أبي مُعَيْطٍ وطئ على رقبته الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان .

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله صلى الله عليه وسلم ما رواه ابن إسحاق عن عبد الله ابن عمرو بن العاص قال : حضرتهم وقد اجتمعوا في الحجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم كذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مر بهم طائفاً بالبيت فغمزوه ببعض القول، فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجهه، ثم مر بهم الثالثة فغمزوه بمثلها . فوقف ثم قال : ( أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده، لقد جنتكم بالذبح

( ، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع، حتى إن أشدهم فيه ليرفؤه بأحسن ما يجد، ويقول : انصرف يا أبا القاسم، فو الله ما كنت جهولاً .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداؤه، وقام أبو بكر دونه، وهو يبكي ويقول : أنتقلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه، قال ابن عمرو : فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط . انتهى ملخصاً .

إسلام حمزة رضي الله عنه

خلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان ظهر برق أضواء الطريق، وهو إسلام حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أسلم في أواخر السنة السادسة من النبوة، والأغلب أنه أسلم في شهر ذي الحجة .

وسبب إسلامه : أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً عند الصفا فأذاه ونال منه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت لا يكلمه، ثم ضربه أبو جهل بحجر في رأسه فشجّه حتى نزف منه الدم، ثم انصرف عنه إلى نادى قريش عند الكعبة، فجلس معهم، وكانت مولاة لعبد الله بن جُدعان في مسكن لها على الصفا ترى ذلك، وأقبل حمزة من القنص مُتَوَشِّحاً قوسه، فأخبرته المولاة بما رأت من أبي جهل، فغضب حمزة - وكان أعز فتى في قريش وأشدّه شكيمه - فخرج يسعى، لم يقف لأحد؛ معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلما دخل المسجد قام على رأسه، وقال له : يا مُصَفَّرَ اسْتَه، تشتم ابن أخي وأنا على دينه ؟ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة، فثار رجال من بني مخزوم - حى أبي جهل - وثار بنو هاشم - حى حمزة - فقال أبو جهل : دعوا أبا عماره، فإنني سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .

وكان إسلام حمزة أول الأمر أنفة رجل، أبي أن يهان مولاة، ثم شرح الله صدره فاستمسك بالعروة الوثقى، واعتز به المسلمون أيما اعتزاز .

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

وخلال هذا الجو الملبد بغيوم الظلم والعدوان أضواء برق آخر أشد بريقاً وإضاءة من الأول، ألا وهو إسلام عمر بن الخطاب، أسلم في ذي الحجة سنة ست من النبوة . بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة رضي الله عنه وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد دعا الله تعالى لإسلامه . فقد أخرج الترمذى عن ابن عمر، وصححه، وأخرج الطبراني عن ابن مسعود وأنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ( اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك : بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام ) فكان أحبهما إلى الله عمر رضي الله عنه .

وبعد إدارة النظر في جميع الروايات التي رويت في إسلامه يبدو أن نزول الإسلام في قلبه كان تدريجياً، ولكن قبل أن نسوق خلاصتها نرى أن تشير إلى ما كان يتمتع به رضي الله عنه من العواطف والمشاعر .

كان رضي الله عنه معروفاً بحدة الطبع وقوة الشكيمه، وطالما لقي المسلمون منه ألوان الأذى، والظاهر أنه كانت تصطرح في نفسه مشاعر متناقضة؛ احترامه للتقاليد التي سنّها الآباء والأجداد وتحمسه لها، ثم إعجابه بصلاية المسلمين، وباحتمالهم البلاء في سبيل العقيدة، ثم الشكوك التي كانت تساوره - كأبي عاقل - في أن ما يدعو إليه الإسلام قد يكون أجل وأزكى من غيره، ولهذا ما إن يُثور حتى يَحُور .

وخلاصة الروايات - مع الجمع بينها - في إسلامه رضي الله عنه : أنه التجأ ليلة إلى المبيت خارج بيته، فجاء إلى الحرم، ودخل في ستر الكعبة، والنبي صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، وقد استفتح سورة { الْحَاقَّةُ } ، فجعل عمر يستمع إلى القرآن، ويعجب من تأليفه، قال : فقلت - أي في نفسي : هذا والله شاعر، كما قالت قريش، قال : فقرأ { إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ } [ الحاقة : 40، 41 ] قال : قلت : كاهن . قال : { وَلَا يَقُولُ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَدَّكُرُونَ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ } إلى آخر السورة [ الحاقة : 42، 43 ] . قال : فوقع الإسلام في قلبي .

كان هذا أول وقوع نواة الإسلام في قلبه، لكن كانت قشرة النزعات الجاهلية، وعصبية التقليد، والتعاطف بدين الآباء هي غالبية على مخ الحقيقة التي كان يتهمس بها قلبه، فبقى مجداً في عمله ضد الإسلام غير مكترث بالشعور الذي يكمن وراء هذه القشرة . وكان من حدة طبعه وفرط عداوته لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنه خرج يوماً متوشحاً سيفه يريد القضاء على النبي صلى الله عليه وسلم، فلقبه نعيم بن عبد الله النحام العدوي، أو رجل من بني زهرة، أو رجل من بني مخزوم فقال : أين تعمد يا عمر ؟ قال : أريد أن أقتل محمداً . قال : كيف تأمن من بني هاشم ومن بني زهرة وقد قتلت محمداً ؟ فقال له عمر : ما أراك إلا قد صبوت، وتركت دينك الذي كنت عليه، قال : أفلا أدلك على العجب يا عمر ! إن أختك وختنك قد صبوا، وترك دينك الذي أنت عليه، فمشى عمر دامراً حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الأرت، معه صحيفة فيها : [ طه ] يقرئها إياها - وكان يختلف إليهما ويقرئهما القرآن - فلما سمع خباب حس عمر توارى في البيت، وستر فاطمة - أخت عمر - الصحيفة . وكان قد سمع عمر حين دنا من البيت قراءة خباب إليهما، فلما دخل عليهما قال : ما هذه الهيمنة التي سمعتها عنكم ؟ فقالا : ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا . قال : فلعلكما قد صبوتما . فقال له خنته : يا عمر، رأيت إن كان الحق في غير دينك ؟ فوثب عمر على خنته فوطئه وطأ شديداً . فجاءت أخته فرفعته عن زوجها، فنفعها فحة بيده، فدمى وجهها - وفي رواية ابن إسحاق أنه ضربها فشجها - فقالت، وهي غضبي : يا عمر، إن كان الحق في غير دينك، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله .

فلما يس عمر، ورأى ما بأخته من الدم وندم واستحيا، وقال : أعطوني هذا الكتاب الذي عندكم فأقرؤه، فقالت أخته : إنك رجس، ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل، ثم أخذ الكتاب، فقرأ : { بسم الله الرحمن الرحيم } فقال : أسماء طيبة طاهرة . ثم قرأ



[ طه ] حتى انتهى إلى قوله : { إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي } [ طه : 14 ] فقال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ؟ دلوني على محمد .

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت، فقال : أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم لك ليلة الخميس : ( اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام ) ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الدار التي في أصل الصفا .

فأخذ عمر سيفه، فتوشحه، ثم انطلق حتى أتى الدار، فضرب الباب، فقام رجل ينظر من خلل الباب، فرآه متوشحاً بالسيف، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستجمع القوم، فقال لهم حمزة : ما لكم ؟ قالوا : عمر ؟ فقال : وعمر ؟ افتحوا له الباب، فإن كان جاء يريد خيراً بدلناه له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه، ورسول الله صلى الله عليه وسلم داخل يوحى إليه، فخرج إلى عمر حتى لقيه في الحجرة، فأخذ بمجامع ثوبه وحمان السيف، ثم جبهه جبذة شديدة فقال : ( أما أنت منتهياً يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما نزل بالوليد بن المغيرة ؟ اللهم، هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب ) ، فقال عمر : أشهد أن لا إله إلا الله، وأنتك رسول الله . وأسلم، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد .

كان عمر رضي الله عنه ذا شكيمة لا يرام، وقد أثار إسلامه ضجة بين المشركين، وشعورا لهم بالذلة والهوان، وكسا المسلمين عزة وشرفاً وسرواً .

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر قال : لما أسلمت تذكرت أي أهل مكة أشد لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة، قال : قلت : أبو جهل، فأثيت حتى ضربت عليه بابه، فخرج إليّ، وقال : أهلاً وسهلاً، ما جاء بك ؟ قال : جئت لأخبرك إنني قد أمنت بالله وبرسوله محمد، وصدقت بما جاء به . قال : فضرب الباب في وجهي، وقال : قبحك الله، وقبح ما جئت به .

وذكر ابن الجوزي أن عمر رضي الله عنه قال : كان الرجل إذا أسلم تعلق به الرجال، فيضربونه ويضربهم، فجئت - أي حين أسلمت - إلى خالي - وهو العاصي بن هشام - فأعلمته فدخل البيت، قال : وذهبت إلى رجل من كبراء قريش - لعله أبو جهل - فأعلمته فدخل البيت .

وفي رواية لابن إسحاق، عن نافع، عن ابن عمر قال : لما أسلم عمر بن الخطاب لم تعلم قريش بإسلامه، فقال : أي أهل مكة أنشأ للحديث ؟ فقالوا : جميل بن معمر الجمحي . فخرج إليه وأنا معه، أعقل ما أرى وأسمع، فأتاه، فقال : يا جميل، إنني قد أسلمت، قال : فو الله ما رد عليه كلمة حتى قام عامداً إلى المسجد فنأدى [ بأعلى صوته ] أن : يا قريش، إن ابن الخطاب قد صبا . فقال عمر - وهو خلفه : كذب، ولكنني قد أسلمت [ وأمنت بالله وصدقت رسوله ] ، فثاروا إليه فما زال يقاتلهم ويقاثلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطأح - أي أعيا - عمر، فقعده، وقاموا على رأسه، وهو يقول : افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا .

وبعد ذلك زحف المشركون إلى بيته يريدون قتله . روى البخاري عن عبد الله بن عمر قال : بينما هو - أي عمر - في الدار خانقاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمي أبو عمرو، وعليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحريز - وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية - فقال له : ما لك ؟ قال : زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت، قال : لا سبيل إليك - بعد أن قالها أمنت - فخرج العاص، فلقى الناس قد سال بهم الوادي، فقال : أين تريدون ؟ فقالوا : هذا ابن الخطاب الذي قد صبا، قال : لا سبيل إليه، ففكر الناس . وفي لفظ في رواية ابن إسحاق : والله، لكأنما كانوا ثوباً كُثِبت عنه .

هذا بالنسبة إلى المشركين، أما بالنسبة إلى المسلمين فروى مجاهد عن ابن عباس قال : سألت عمر بن الخطاب : لأي شيء سميت الفاروق ؟ قال : أسلم حمزة قبلي بثلاثة أيام - ثم قص عليه قصة إسلامه . وقال في آخره : قلت - أي حين أسلمت : يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال : ( بلى، والذي نفسي بيده، إنكم على الحق وإن متم وإن حييتم ) ، قال : قلت : ففيم الاختفاء ؟ والذي بعثك بالحق لنخرجن، فأخرجناه في صفين، حمزة في أحدهما، وأنا في الآخر، له كديد كديد الطحين، حتى دخلنا المسجد، قال : فنظرت إلى قريش وإلى حمزة، فأصابتهم كآبة لم يصيبهم مثلها، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم ( الفاروق ) يومئذ .

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : ما كنا نقدر أن نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر .

وعن صهيب بن سنان الرومي رضي الله عنه قال : لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية، وجلسنا حول البيت حلّقاً، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا، ورددنا عليه بعض ما يأتي به .

وعن عبد الله بن مسعود قال : ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر .

ممثّل قريش بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم

وبعد إسلام هذين البطلين الجليلين - حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما أخذت السحائب تتقشع، وأفاق المشركون عن سكرهم في تنكيلهم بالمسلمين، وغيروا تفكيرهم في معاملتهم مع النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين، واختاروا أسلوب المساومات وتقديم الرغائب والمغريات، ولم يدر هؤلاء المساكين أن كل ما تطلع عليه الشمس لا يساوي جناح بعوضة أمام دين الله والدعوة إليه، فخابوا وفشلوا فيما أرادوا .

قال ابن إسحاق : حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة، وكان سيّداً، قال يوماً - وهو في نادي قريش، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء وكيف عنا ؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله

عليه وسلم يكثرون وي زيدون، فقالوا : بلى، يا أبا الوليد، قم إليه، فكلمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال : يابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آياتهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنتظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . قال : فقال رسول صلى الله عليه وسلم : ( قل يا أبا الوليد أسمع ) .

قال : يابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جنت به من هذا الأمر مألًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مألًا، وإن كنت تريد به شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك ربيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه - أو كما قال له - حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال : ( أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ ) قال : نعم، قال : ( فاسمع مني ) ، قال : أفعل، فقال : { بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنًا عربيًا لقوم يعلمون بشيرًا ونذيرًا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه } [ فصلت : 1 : 5 ] . ثم مضى رسول الله فيها، يقرؤها عليه . فلما سمعها منه عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة منها فسجد ثم قال : ( قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك ) .

فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أنني سمعت قولًا والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال : هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم .

عزم أبي جهل على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم خاطبهم أبو جهل في كبريائه وقال : يا معشر قريش، إن محمدًا قد أبي إلا ما ترون من عيب ديننا، وشم آياتنا، وتسفيه أحلامنا، وشم آلهتنا، وأني أعاهد الله لأجلسن له بجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبدًا، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل، أخذ حجرًا كما وصف، ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره، وغدا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو، فقام يصلي، وقد غدت قريش فجلسوا في أندية يتنظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزمًا ممتقعًا لونه، مرعوبًا قد يبست يده على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟ قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، لا والله ما رأيت مثل هامته، ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفلح قط، فهم بي أن ياكلني . قال ابن إسحاق : فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه ) موقف أبي طالب وعشيرته

أما أبو طالب فإنه لما واجه مطالبه قريش بتسليم النبي صلى الله عليه وسلم لهم ليقتلوه، ثم رأي في تحركاتهم وتصرفاتهم ما يؤكد أنهم يريدون قتله وإخفاره ذمته - مثل ما فعله عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام وعمر بن الخطاب - جمع بني هاشم وبني المطلب، ودعاهم إلى القيام بحفظ النبي صلى الله عليه وسلم، فأجابوه إلى ذلك كله - مسلمهم وكافرهم - حميةً للجوار العربي، وتعاقدوا وتعاهدوا عليه عند الكعبة . إلا ما كان من أخيه أبي لهب، فإنه فارقهم، وكان مع قريش . المقاطعة العامة :

ميثاق الظلم والعدوان زادت حيرة المشركين إذ نفذت بهم الحيل، ووجدوا بني هاشم وبني المطلب مصممين على حفظ نبي الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه، كأننا ما كان، فاجتمعوا في خيف بني كنانة من وادي المخصب فتحالفوا على بني هاشم وبني المطلب ألا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يجالسوهم، ولا يخالطوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، ولا يكلموهم، حتى يسلموا إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، وكتبوا بذلك صحيفة فيها عهود ومواثيق ( ألا يقبلوا من بني هاشم صلحًا أبدًا، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموه للقتل ) . قال ابن القيم : يقال : كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال : نضر بن الحارث، والصحيح أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلت يده .

تم هذا الميثاق وعلقت الصحيفة في جوف الكعبة، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب، مؤمنهم وكافرهم - إلا أبا لهب - وحبسوا في شعب أبي طالب، وذلك فيما يقال : ليلة هلال المحرم سنة سبع من البعثة . وقد قيل غير ذلك . ثلاثة أعوام في شعب أبي طالب

واشدت الحصار، وقطعت عنهم الميرة والمادة، فلم يكن المشركون يتركون طعامًا يدخل مكة ولا يبيعًا إلا بادروه فاشتروه، حتى بلغهم الجهد، والتجأوا إلى أكل الأوراق والجلود، وحتى كان يسمع من وراء الشعب أصوات نساءهم وصبيانهم يتضاغون من الجوع، وكان لا يصل إليهم شيء إلا سرًا، وكانوا لا يخرجون من الشعب لاشتراء الحوائج إلا في الأشهر الحرم، وكانوا يشترون من العير التي ترد مكة من خارجها، ولكن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السلعة قيمتها حتى لا يستطيعون شراءها .

وكان حكيم بن حزام ربما يحمل قمحاً إلى عمته خديجة رضي الله عنها وقد تعرض له مرة أبو جهل فتعلق به ليمنعه، فتدخل بينهما أبو البخترى، ومكنه من حمل القمح إلى عمته .

وكان أبو طالب يخاف على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكان إذا أخذ الناس مضاجعهم يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضطجع على فراشه، حتى يرى ذلك من أراد اغتياله، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه أو إخوانه أو بني عمه فاضطجع على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يأتي بعض فرسهم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يخرجون في أيام الموسم، فيلقون الناس، ويدعونهم إلى الإسلام، وقد أسلفنا ما كان يأتي به أبو لهب .

نقض صحيفة الميثاق

مر عامان أو ثلاثة أعوام والأمر على ذلك، وفي المحرم سنة عشر من النبوة نقضت الصحيفة وفك الحصار؛ وذلك أن قريشاً كانوا بين راض بهذا الميثاق وكراره له، فسعى في نقض الصحيفة من كان كارهاً لها .

وكان القائم بذلك هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي - وكان يصل بني هاشم في الشعب مستخفياً بالليل بالطعام - فإنه ذهب إلى زهير بن أبي أمية المخزومي - وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب - وقال : يا زهير، أرضيت أن تأكل الطعام، وتشرب الشراب، وأحوالك بحيث تعلم؟ فقال : ويحك، فما أصنع وأنا رجل واحد؟ أما والله لو كان معي رجل آخر لقمتم في نقضها، قال : قد وجدت رجلاً . قال : فمن هو؟ قال : أنا . قال له زهير : ابغنا رجلاً ثالثاً .

فذهب إلى المطعم بن عدى، فذكره أرحام بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف، ولامه على موافقته لقريش على هذا الظلم، فقال المطعم : ويحك، ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال : قد وجدت ثانيًا، قال : من هو؟ قال : أنا . قال : ابغنا ثالثاً . قال : قد فعلت . قال : من هو؟ قال : زهير بن أبي أمية، قال : ابغنا رابعاً .

فذهب إلى أبي البخترى بن هشام، فقال له نحوًا مما قال للمطعم، فقال : وهل من أحد يعين على هذا؟ قال : نعم . قال : من هو؟ قال زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدى، وأنا معك، قال : ابغنا خامساً .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال : نعم، ثم سمي له القوم، فاجتمعوا عند الحجون، وتعاهدوا على القيام بنقض الصحيفة، وقال زهير : أنا أبدأكم فأكون أول من يتكلم .

فلما أصبحوا غدوا إلى أنديةهم، وغدا زهير عليه حلة، فطاف بالبيت سبياً، ثم أقبل على الناس، فقال : يا أهل مكة، أتناكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكي، لا يباع ولا يبتاع منهم؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد : كذبت، والله لا تشق .

فقال زمعة بن الأسود : أنت والله أكذب، مارضينا كتابتها حيث كتبت .

قال أبو البخترى : صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقر به .

قال المطعم بن عدى : صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها ومما كتب فيها .

وقال هشام بن عمرو نحوًا من ذلك .

فقال أبو جهل : هذا أمر قضى لليل، وتُسوّر فيه بغير هذا المكان .

وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، إنما جاءهم لأن الله كان قد أطلع رسوله صلى الله عليه وسلم على أمر الصحيفة، وأنه أرسل عليها الأرضة، فأكلت جميع ما فيها من جور وقطيعة وظلم إلا ذكر الله عز وجل، فأخبر بذلك عمه، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابن أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كان كاذبًا خيلنا بينكم وبينه، وإن كان صادقًا رجعتن عن قطيعتنا وظلمنا، قالوا : قد أنصفت .

وبعد أن دار الكلام بين القوم وبين أبي جهل، قام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا ( باسمك اللهم ) ، وما كان فيها من اسم الله فإنها لم تأكله .

ثم نقض الصحيفة وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الشعب، وقد رأي المشركون آية عظيمة من آيات نبوته، ولكنهم - كما أخبر الله عنهم { وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ } [ القمر : 2 ] - أعرضوا عن هذه الآية وازدادوا كفرًا إلى كفرهم .

عام الحزن :

وفاة أبي طالب

ألح المرض بأبي طالب، فلم يلبث أن وافته المنية، وكانت وفاته في رجب سنة عشر من النبوة، بعد الخروج من الشعب بستة أشهر . وقيل : توفي في رمضان قبل وفاة خديجة رضي الله عنها بثلاثة أيام . وفي الصحيح عن المسيب : أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أبو جهل، فقال : ( أي عم، قل : لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله ) فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية : يا أبا طالب، ترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزالا يكلماه حتى قال آخر شيء كلمهم به : على ملة عبد المطلب، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : ( لأستغفرن لك ما لم أنه عنه ) ، فنزلت : { مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ } [ التوبة : 113 ] ونزلت : { إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ } [ القصص : 56 ] .

ولا حاجة إلى بيان ما كان عليه أبو طالب من الحيطة والمنع، فقد كان الحصن الذي احتمت به الدعوة الإسلامية من هجمات الكبراء والسفهاء، ولكنه بقى على ملة الأشياخ من أجداده، فلم يفلح كل الفلاح .

ففي الصحيح عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك ؟ قال : ( هو في ضَحْضَاحٍ من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار )

وعن أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم - وذكر عنده عمه - فقال : ( لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار تبلغ كعبيه )

خديجة إلى رحمة الله

وبعد وفاة أبي طالب بنحو شهرين أو بثلاثة أيام - على اختلاف القولين - توفيت أم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله عنها وكانت وفاتها في شهر رمضان في السنة العاشرة من النبوة، ولها خمس وستون سنة على أشهر الأقوال، ورسول الله صلى الله عليه وسلم إذ ذاك في الخمسين من عمره .

إن خديجة كانت من نعم الله الجليلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، بقيت معه ربع قرن تحن عليه ساعة قلقه، وتوازره في أخرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه في مغارم الجهاد المر، وتواسيه بنفسها ومالها، يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( أمنت بي حين كفر بي الناس، وصدقنتني حين كذبنني الناس، وأشركنتني في مالها حين حرمني الناس، ورزقتني الله ولدها وحرم ولد غيرها )

وفي الصحيح عن أبي هريرة قال : أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله، هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها، وبشراها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب .

تراكم الأحزان

وقعت هاتان الحادثتان المؤلمتان خلال أيام معدودة، فاهتزت مشاعر الحزن والألم في قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم لم تزل تتوالى عليه المصائب من قومه . فإنهم تجرأوا عليه وكاشفوه بالنكال والأذى بعد موت أبي طالب، فزاداد غمًا على غم، حتى يؤس منهم، وخرج إلى الطائف رجاء أن يستجيبوا لدعوته، أو يؤووه وينصروه على قومه، فلم ير من يؤوى ولم ير ناصرًا، بل أدوه أشد الأذى، ونالوا منه ما لم ينله قومه .

وكما اشتدت وطأة أهل مكة على النبي صلى الله عليه وسلم اشتدت على أصحابه حتى التجأ رفيقه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى الهجرة عن مكة، فخرج حتى بلغ بَرَكَ العَمَاد، يريد الحبشة، فأرجعه ابن الدُّعْنَةَ في جواره .

الدعوة الإسلام خارج مكة

الرسول صلى الله عليه وسلم في الطائف

في شوال سنة عشر من النبوة [ في أواخر مايو أو أوائل يونيو سنة 619 م ] خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف، وهي تبعد عن مكة نحو ستين ميلًا، سارها ماشيًا على قدميه جبهةً وذهوبًا، ومعه مولاة زيد بن حارثة، وكان كلما مر على قبيلة في الطريق دعاهم إلى الإسلام، فلم تجب إليه واحدة منها .

فلما انتهى إلى الطائف عمد ثلاثة إخوة من رؤساء ثقيف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب أبناء عمرو بن عمير الثقفي، فجلس إليهم ودعاهم إلى الله، وإلى نصرته الإسلام، فقال أحدهم : هو يَمْرُطُ ثياب الكعبة [ أي يمزقها ] إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أما وَجَدَ الله أحدًا غيرك، وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدًا، إن كنت رسولًا لأنت أعظم خطرًا من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي أن أكلمك . فقام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لهم : [ إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني ] .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهل الطائف عشرة أيام، لا يدع أحدًا من أشرفهم إلا جاءه وكلمه، فقالوا : اخرج من بلادنا . وأغروا به سفهاءهم، فلما أراد الخروج تبعه سفهاؤهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس، فوقفوا له سِمَاطَيْنِ [ أي صفيين ] وجعلوا يرمونه بالحجارة، وبكلمات من السفه، ورجموا عراقيبه، حتى اختضب نعلاه بالدماء . وكان زيد بن حارثة يقيه

بنفسه حتى أصابه شَجَاجٌ في رأسه، ولم يزل به السفهاء كذلك حتى ألجأوه إلى حائط لعنبة وشيبة ابني ربيعة على ثلاثة أميال من الطائف، فلما التجأ إليه رجعوا عنه، وأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُبْلَةٍ من عنب فجلس تحت ظلها إلى جدار . فلما جلس إليه واطمأن، دعا بالدعاء المشهور الذي يدل على امتلاء قلبه كآبة وحزنًا مما لقي من الشدة، وأسأ على أنه لم يؤمن به أحد، قال :

( اللهم إليك أشكو ضَعْفَ قُوَّتِي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكَلِّمُنِي ؟ إلى بعيد يَتَجَهَّمُونِي ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سَخَطُكَ، لك العُتْبَى حتى

ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك ) .

فلما رآه ابنا ربيعة تحركت له رحمهما، فدعوا غلامًا لهما نصرانيًا يقال له : عَدَّاس، وقالوا له : خذ قطعًا من هذا العناب، واذهب به إلى هذا الرجل . فلما وضعه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم مد يده إليه قائلاً : ( باسم الله ) ثم أكل .

فقال عداس : إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( من أي البلاد أنت ؟ وما دينك ؟ قال : أنا نصراني من أهل نَيْبُوَى . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى ) . قال له : وما يدريك ما يونس ابن متى ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي ) ، فأكب عداس على رأس رسول الله صلى

الله عليه وسلم ويديه ورجليه يقبلها .

فقال ابنا ربيعة أحدهما للآخر : أما غلامك فقد أفسده عليك . فلما جاء عداس قال له : ويحك ما هذا ؟ قال : يا سيدي، ما في الأرض شيء خير من هذا الرجل، لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي، قال له : ويحك يا عداس ، لا يصرفك عن دينك، فإن دينك خير من دينه .

ورجع رسول الله صلى الله عليه وسلم في طريق مكة بعد خروجه من الحائط كئيبيًا محزونًا كسير القلب، فلما بلغ قرن المنازل بعث الله إليه جبريل ومعه ملك الجبال، يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة .

وقد روى البخاري تفصيل القصة - بسنده - عن عروة بن الزبير، أن عائشة رضي الله عنها حدثته أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟ قال : ( لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت - وأنا مهموم - على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب - وهو المسمى بقرن المنازل - فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال : يا محمد، ذلك، فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين - أي لعلت، والأخشبان : هما جبلا مكة : أبو قبيس والذي يقابله، وهو قُتيبان - قال النبي صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئاً ) .

وفي هذا الجواب الذي أدلى به الرسول صلى الله عليه وسلم تتجلى شخصيته الفذة، وما كان عليه من الخلق العظيم لا يدرك غوره . وأفاق رسول الله صلى الله عليه وسلم واطمان قلبه لأجل هذا النصر الغيبي الذي أمده الله عليه من فوق سبع سموات، ثم تقدم في طريق مكة حتى بلغ وادي نخلة، وأقام فيه أيامًا . وفي وادي نخلة موضعان يصلحان للإقامة - السيل الكبير والريضة - لما بهما من الماء والخصب، ولم نقف على مصدر يعين موضع إقامته صلى الله عليه وسلم فيه .

وخلال إقامته صلى الله عليه وسلم هناك بعث الله إليه نفرًا من الجن ذكرهم الله في موضعين من القرآن : في سورة الأحقاف : { وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابِ أَلِيمٍ } [ الأحقاف : 29 : 31 ] .

وفي سورة الجن : { قُلْ أُوْحِي إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا } إلى تمام الآية الخامسة عشر [ الجن : 1 : 15 ]

ومن سياق هذه الآيات - وكذا من سياق الروايات التي وردت في تفسير هذا الحادث - يتبين أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعلم حضور ذلك النفر من الجن حين حضروا وسمعوا، وإنما علم بعد ذلك حين أطلعه الله عليه بهذه الآيات، وأن حضورهم هذا كان لأول مرة، ويقضى سياق الروايات أنهم وفدوا بعد ذلك مرارًا .

وحقًا كان هذا الحادث نصرًا آخر أمده الله من كنوز غيبه المكنون بجنوده التي لا يعلمها إلا هو، ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث كانت في طيها بشارات بنجاح دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، وأن أي قوة من قوات الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها : { وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ } [ الأحقاف : 32 ] ، { وَأَنَا ظَنَّنَا أَنَّ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا } [ الجن : 12 ] .

أمام هذه النصر، وأمام هذه البشارات، أفتشت سحابة الكآبة والحزن واليأس التي كانت مطبقة عليه منذ أن خرج من الطائف مطروذًا مدحورًا، حتى صمم على العود إلى مكة، وعلى القيام باستئناف خطته الأولى في عرض الإسلام وإبلاغ رسالة الله الخالدة بنشاط جديد وبجد وحماس .

وحينئذ قال له زيد بن حارثة : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟ يعني قريشًا، فقال : ( يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصر دينه، ومظهر نبيه ) . وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا دنا من مكة مكث بجرا، وبعث رجلاً من خزاعة إلى الأحنس بن شريق ليجيره، فقال : أنا حليف، والحليف لا يجير ، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال سهيل : إن بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المطعم بن عدى، فقال المطعم : نعم ، ثم تسلح ودعا بنيه وقومه ، فقال : اليسوا السلاح، وكونوا عند أركان البيت، فإني قد أجزت محمدًا، ثم بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن ادخل، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى : يا معشر قريش، إني قد أجزت محمدًا فلا يهجه أحد منكم، وانتهي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الركن فاستلمه، وطاف بالبيت، وصلى ركعتين، وانصرف إلى بيته، ومطمع بن عدى وولده محدقون به بالسلاح حتى دخل بيته .

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعمًا : أمجير أنت أم متابع - مسلم ؟ . قال : بل مجير . قال : قد أجزنا من أجزت .

وقد حفظ رسول الله صلى الله عليه وسلم للمطعم هذا الصنيع، فقال في أسارى بدر : ( لو كان المطعم بن عدى حيًا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهن له ) .

عرض الإسلام على القبائل والأفراد

في ذى القعدة سنة عشر من النبوة - في أواخر يونيو أو أوائل يوليو سنة 619 م - عاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة؛ ليستأنف عرض الإسلام على القبائل والأفراد، ولاقترب الموسم كان الناس يأتون إلى مكة رجالًا، وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق لأداء فريضة الحج، وليشهدوا منافع لهم، ويذكروا اسم الله في أيام معلومات، فانتبهز رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه

الفرصة، فأتاهم قبيلة يعض عليهم الإسلام ويدعوهم إليه ، كما كان يدعوهم منذ السنة الرابعة من النبوة ، وقد بدأ يطلب منهم من هذه السنة - العاشرة - أن يؤووه وينصروه ويمنعوه حتى يبلغ ما بعثه الله به .

ست نسمات طيبة من أهل يثرب

وفي موسم الحج من سنة 11 من النبوة - يوليو سنة 620م - وجدت الدعوة الإسلامية بذورًا صالحة، سرعان ما تحولت إلى شجرات باسقات، اتقى المسلمون في ظلها الوارفة لفحات الظلم والعدوان حتى تغير مجرى الأحداث وتحول خط التاريخ .

وكان من حكمته صلى الله عليه وسلم إزاء ما كان يلقي من أهل مكة من التكذيب والصد عن سبيل الله أنه كان يخرج إلى القبائل في ظلام الليل، حتى لا يحول بينه وبينهم أحد من أهل مكة المشركين .

فخرج ليلة ومعه أبو بكر وعلى، فمر على منازل دُهل وشيبان بن ثعلبة ، وكلمهم في الإسلام . وقد دارت بين أبي بكر وبين رجل من ذهل أسئلة وردود طريفة، وأجاب بنو شيبان بأرجى الأجوبة، غير أنهم توقفوا في قبول الإسلام .

ثم مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بعقبة منى، فسمع أصوات رجال يتكلمون فعمدهم حتى لحقهم، وكانوا ستة نفر من شباب يثرب كلهم من الخزرج، وهم :

1 - أسعد بن زُرارة [ من بني النجار ] .

2 - عوف بن الحارث بن رفاعة ابن عَفراء [ من بني النجار ] .

3 - رافع بن مالك بن العَجَلان [ من بني زُرَيْق ] .

4 - قُطَبة بن عامر بن حديدة [ من بني سلمة ] .

5 - عُقبَة بن عامر بن نايي [ من بني حَرَام بن كعب ] .

6 - جابر بن عبد الله بن رثاب [ من بني عبيد بن غُثم ] .

وكان من سعادة أهل يثرب أنهم كانوا يسمعون من حلفائهم من يهود المدينة، إذا كان بينهم شيء، أن نبيًا من الأنبياء مبعوث في هذا الزمان سيخرج، فنبتعه، ونقلكم معه قتل عاد وإرم .

فلما لحقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : ( من أنتم ؟ ) قالوا : نفر من الخزرج، قال : ( من موالى اليهود ؟ ) أي حلفائهم، قالوا : نعم . قال : ( أفلا تجلسون أكلمكم ؟ ) قالوا : بلى، فجلسوا معه، فشرح لهم حقيقة الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله عز وجل،

وتلا عليهم القرآن . فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله يا قوم، إنه للنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته، وأسلموا . وكانوا من عقلاء يثرب، أنهكتهم الحرب الأهلية التي مضت قريبيًا، والتي لا يزال لهيبها مستعرًا، فأملوا أن تكون

دعوته سببًا لوضع الحرب، فقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك .

ولما رجع هؤلاء إلى المدينة حملوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيه ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

استطرد - زواج رسول الله صلى الله عليه وسلم بعائشة

وفي شوال من هذه السنة - سنة 11 من النبوة - تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة الصديقة رضي الله عنها وهي بنت ست سنين وبني بها بالمدينة في شوال في السنة الأولى من الهجرة وهي بنت تسع سنين .

الإسراء والمعراج

وبينما النبي صلى الله عليه وسلم يمر بهذه المرحلة، وأخذت الدعوة تشق طريقًا بين النجاح والاضطهاد، وبدأت نجوم الأمل تتلمح في آفاق بعيدة، وقع حادث الإسراء والمعراج . واختلف في تعيين زمنه على أقوال شتى في السنة الأولى من البعثة وقيل بعد البعثة

بخمس سنين وقيل في العاشرة وقيل في الثانية عشر وقيل في الثالثة عشر من الهجرة

وَرُدَّتْ الأقوال الثلاثة الأول بأن خديجة رضي الله عنها توفيت في رمضان سنة عشر من النبوة، وكانت وفاتها قبل أن تفرض

الصلوات الخمس . ولا خلاف أن فرض الصلوات الخمس كان ليلة الإسراء . أما الأقوال الثلاثة الباقية فلم أجد ما أرجح به واحدًا منها، غير أن سياق سورة الإسراء يدل على أن الإسراء متأخر جدًا .

وروى أئمة الحديث تفاصيل هذه الواقعة، وفيما يلي نسردها بإيجاز :

قال ابن القيم : أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم بجسده على الصحيح من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبًا على البُرّاق، صحبة جبريل عليهما الصلاة والسلام، فنزل هناك، وصلى بالأنبياء إمامًا، وربط البراق بحلقة باب المسجد .

ثم عرج به تلك الليلة من بيت المقدس إلى السماء الدنيا، فاستفتح له جبريل ففتح له، فرأى هنالك آدم أبا البشر، فسلم عليه، فرحب به ورد عليه السلام، وأقر بنبوته، وأراه الله أرواح السعداء عن يمينه، وأرواح الأشقياء عن يساره .

ثم عرج به إلى السماء الثانية، فاستفتح له، فرأى فيها يحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، فلقيهما وسلم عليهما، فردا عليه ورحبا به، وأقرّا بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة، فرأى فيها يوسف، فسلم عليه فرد عليه ورحب به، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الرابعة، فرأى فيها إدريس، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء الخامسة، فرأى فيها هارون بن عمران، فسلم عليه، فرد عليه ورحب به، وأقر بنبوته .

ثم عرج به إلى السماء السادسة، فلقى فيها موسى بن عمران، فسلم عليه، فرد عليه ورحب به، وأقر بنبوته .

فلما جاوزه بكى موسى، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكى؛ لأن غلامًا بعث من بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر مما يدخلها من أمتي .

ثم عرج به إلى السماء السابعة، فلقى فيها إبراهيم عليه السلام، فسلم عليه، فرد عليه، ورحب به، وأقر بنبوته .

ثم رفع إلى سدره المنتهى، فإذا بُنِّفها مثل قلال هجر، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، ثم غشيها فراش من ذهب، ونور وألوان، فتغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن يصفها من حسنها . ثم رفع له البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك ثم لا يعودون . ثم أدخل الجنة، فإذا فيها حبال اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك . وعرج به حتى ظهر لمستوى يسمع فيه صريف الأقدام .

ثم عرج به إلى الجبار جل جلاله، فدنا منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى، وفرض عليه خمسين صلاة، فرجع حتى مرّ على موسى فقال له : بم أمرك ربك ؟ قال : ( بخمسين صلاة ) . قال : إن أمتك لا تطيق ذلك، ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فالتفت إلى جبريل، كأنه يستشير في ذلك، فأشار : أن نعم إن شئت، فعلا به جبريل حتى أتى به الجبار تبارك

وتعالى، وهو في مكانه - هذا لفظ البخاري في بعض الطرق - فوضع عنه عشرًا، ثم أنزل حتى مر بموسى، فأخبره، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فلم يزل يتردد بين موسى وبين الله عز وجل، حتى جعلها خمسًا، فأمره موسى بالرجوع وسؤال التخفيف، فقال : ( قد استحيت من ربي، ولكني أرضى وأسلم ) ، فلما بعد نادى مناد : قد أمضيت فريضتي وخففت عن عبادي . انتهى .

ثم ذكر ابن القيم خلأً في رؤيته صلى الله عليه وسلم ربه تبارك وتعالى، ثم ذكر كلامًا لابن تيمية بهذا الصدد، وحاصل البحث أن الرؤية بالعين لم تثبت أصلاً، وهو قول لم يقله أحد من الصحابة . وما نقل عن ابن عباس من رؤيته مطلقاً ورؤيته بالفؤاد فالأول لا ينافي الثاني .

ثم قال : وأما قوله تعالى في سورة النجم : { تَمَّ دَنَا قَدَدَلَى } [ النجم : 8 ] فهو غير الدنو الذي في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبريل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود، والسياق يدل عليه، وأما الدنو والتدلي في حديث الإسراء فذلك صريح في أنه دنو الرب تبارك وتعالى وتدليه، ولا تعرض في سورة النجم لذلك، بل فيه أنه رآه نزلة أخرى عند سدره المنتهى . وهذا هو جبريل، رآه محمد صلى الله عليه وسلم على صورته مرتين : مرة في الأرض، ومرة عند سدره المنتهى، والله أعلم . انتهى .

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة أمورًا عديدة :

عرض عليه اللبن والخمر، فاختر اللبن، فقيل : هديت الفطرة أو أصبت الفطرة، أما إنك لو أخذت الخمر غوت أمتك .

ورأى أربعة أنهار يخرج من أصل سدره المنتهى : نهران ظاهران ونهران باطنان، فالظاهران هما : النيل والفرات، عنصرهما .

والباطنان : نهران في الجنة . ولعل رؤية النيل والفرات كانت إشارة إلى تمكن الإسلام من هذين القطرين، والله أعلم .

ورأى مالكًا خازن النار، وهو لا يضحك، وليس على وجهه بشر ولا بشاشة، وكذلك رأى الجنة والنار .

ورأى أكلة أموال اليتامى ظلماً لهم مشافر كمشافر الإبل، يقذفون في أفواههم قطعاً من نار كالأفهار، فتخرج من أدبارهم .

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة لا يقدر أن يجلها أن يتحولوا عن أماكنهم، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم .

ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن، ويتركون الطيب السمين .

ورأى النساء اللاتي يدخلن على الرجال من ليس من أولادهم، رآهن معلقات بتديهن .

ورأى عيراً من أهل مكة في الإياب والذهاب، وقد دلهم على بغير نذ لهم، وشرب ماءهم من إناء مغطى وهم نائمون، ثم ترك الإناء

مغطى، وقد صار ذلك دليلاً على صدق دعواه في صباح ليلة الإسراء .

قال ابن القيم : فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم في قومه أخبرهم بما أراه الله عز وجل من آياته الكبرى، فاشتد تكذيبهم له

وأذاهم واستنصرارهم عليه، وسأله أن يصف لهم بيت المقدس، فجلاه الله له، حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته، ولا يستطيعون

أن يردوا عليه شيئاً، وأخبرهم عن غيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدمها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، وكان

الأمر كما قال، فلم يزداهم ذلك إلا نفوراً، وأبي الظالمون إلا كفوراً .

يقال : سُمى أبو بكر رضي الله عنه صديقاً؛ لتصديقه هذه الواقعة حين كذبها الناس .

وأوجز وأعظم ما ورد في تعليل هذه الرحلة هو قوله تعالى : { لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا } [ الإسراء : 1 ] وهذه سنة الله في الأنبياء، قال : {

وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } [ الأنعام : 75 ] ، وقال لموسى عليه السلام : { لِنُرِيكَ مِنْ

آيَاتِنَا الْكُبْرَى } [ طه : 23 ] ، وقد بين مقصود هذه الإراءة بقوله : { وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ } فيبعد استناد علوم الأنبياء إلى رؤية

الآيات يحصل لهم من عين اليقين ما لا يقادر قدره، وليس الخبر كالمعاينة، فيتحملون في سبيل الله ما لا يتحمل غيرهم، وتصير

جميع قوات الدنيا عندهم كجناح بعوضة لا يعباؤون بها إذا ما تدول عليهم بالمحن والعذاب .

والحكم والأسرار التي تكمن وراء جزئيات هذه الرحلة إنما محل بحثها كتب أسرار الشريعة، ولكن هنا حقائق بسيطة تتفجر من

ينابيع هذه الرحلة المباركة، وتندفق إلى حدائق أزهار السيرة النبوية - على صاحبها الصلاة والسلام والتحية - أرى أن أسجل بعضاً

منها بالإيجاز :

يرى القارئ في سورة الإسراء أن الله ذكر قصة الإسراء في آية واحدة فقط، ثم أخذ في ذكر فضائح اليهود وجرائمهم، ثم نبههم بأن

هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، فربما يظن القارئ أن الآيتين ليس بينهما ارتباط، والأمر ليس كذلك، فإن الله تعالى يشير بهذا

الأسلوب إلى أن الإسراء إنما وقع إلى بيت المقدس؛ لأن اليهود سيعزلون عن منصب قيادة الأمة الإنسانية؛ لما ارتكبوا من الجرائم

التي لا مجال بعدها لبقائهم على هذا المنصب، وإن الله سينقل هذا المنصب فعلاً إلى رسوله صلى الله عليه وسلم ويجمع له مركزى

الدعوة الإبراهيمية كليهما، فقد آن أوان انتقال القيادة الروحية من أمة إلى أمة؛ من أمة ملأت تاريخها بالغدر والخيانة والإثم والعدوان، إلى أمة تتدفق بالبر والخيرات، ولا يزال رسولها يتمتع بوحى القرآن الذي يهدى للتي هي أقوم .  
ولكن كيف تنتقل هذه القيادة، والرسول يطوف في جبال مكة مطروداً بين الناس ؟ هذا السؤال يكشف الغطاء عن حقيقة أخرى، وهي أن عهداً من هذه الدعوة الإسلامية قد أوشك إلى النهاية والتمام، وسيبدأ عهد آخر جديد يختلف عن الأول في مجراه، ولذلك نرى بعض الآيات تشتمل على إنذار سافر ووعيد شديد بالنسبة إلى المشركين { وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا } [ الإسراء : 16، 17 ]  
وبجنب هذه الآيات آيات أخرى تبين للمسلمين قواعد الحضارة وبنودها ومبادئها التي يبتنى عليها مجتمعهم الإسلامي، كأنهم قد أوا إلى أرض امتلكوا فيها أمورهم من جميع النواحي، وكونوا وحدة متماسكة تدور عليها رحي المجتمع، ففيه إشارة إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيجد ملجأ ومأماً يستقر فيه أمره، ويصير مركزاً لبت دعوته في أرجاء الدنيا . هذا سر من أسرار هذه الرحلة المباركة، يتصل ببحثنا فاترنا ذكره .  
ولأجل هذه الحكمة وأمثالها نرى أن الإسراء إنما وقع إما قبيل بيعة العقبة الأولى أو بين العقبين، والله أعلم .

#### بيعة العقبة الأولى

قد ذكرنا أن ستة نفر من أهل يثرب أسلموا في موسم الحج سنة 11 من النبوة، ووعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بإبلاغ رسالته في قومهم .

وكان من جراء ذلك أن جاء في الموسم التالي - موسم الحج سنة 12 من النبوة، يوليو سنة 621م - اثنا عشر رجلاً، فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد التقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم في العام السابق - والسادس الذي لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رباب - وسبعة سواهم، وهم :

- 1 - معاذ بن الحارث، ابن عفراء من بني النجار [ من الخزرج ]
- 2 - ذكوان بن عبد القيس من بني زريق . [ من الخزرج ]
- 3 - عبادة بن الصامت من بني غنم [ من الخزرج ]
- 4 - يزيد بن ثعلبة من حلفاء بني غنم [ من الخزرج ]
- 5 - العباس بن عبادة بن نضلة من بني سالم [ من الخزرج ]
- 6 - أبو الهيثم بن النبهان من بني عبد الأشهل [ من الأوس ] .
- 7 - عويم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف [ من الأوس ] .

الأخيران من الأوس، والبقية كلهم من الخزرج .  
التقى هؤلاء برسول الله صلى الله عليه وسلم عند العقبة بمنى فبايعوه بيعة النساء، أي وفق بيعتهن التي نزلت بعد الحديبية .  
روى البخاري عن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( تعالوا بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوني في معروف، فمن وفي منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا، فهو له كفارة، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله؛ إن شاء عاقبه، وإن شاء عفا عنه ) . قال : فبايعته - وفي نسخة : فبايعناه - على ذلك .

#### سفير الإسلام في المدينة

وبعد أن تمت البيعة وانتهى الموسم بعث النبي صلى الله عليه وسلم مع هؤلاء المبايعين أول سفير في يثرب؛ ليعلم المسلمين فيها شرائع الإسلام، ويفقههم في الدين، وليقوم بنشر الإسلام بين الذين لم يزالوا على الشرك، واختار لهذه السفارة شاباً من شباب الإسلام من السابقين الأولين، وهو مُصعب بن عمير العبدري رضي الله عنه .

#### بيعة العقبة الثانية

في موسم الحج في السنة الثالثة عشرة من النبوة - يونيو سنة 622م - حضر لأداء مناسك الحج بضع وسبعون نفساً من المسلمين من أهل يثرب، جاءوا ضمن حجاج قومهم من المشركين، وقد تساءل هؤلاء المسلمون فيما بينهم - وهم لم يزالوا في يثرب أو كانوا في الطريق : حتى متى نترك رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف ويتردد في جبال مكة ويخاف ؟  
فلما قدموا مكة جرت بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم اتصالات سرية أدت إلى اتفاق الفريقين على أن يجتمعوا في أوسط أيام التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وأن يتم الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل .  
ولنترك أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع التاريخي الذي حول مجرى الأيام في صراع الوثنية والإسلام . يقول كعب بن مالك الأنصاري رضي الله عنه :

خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرفنا، أخذناه معنا - وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا - فكلمناه وقلنا له : يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرفنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غداً . ثم دعوانا إلى الإسلام، وأخبرنا بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم إيانا العقبة، قال : فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً .



قال كعب : فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم، نتسلل تسلل الفطأ، مستخفين، حتى اجتمعنا في الشَّعب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، وامرأتان من نساننا؛ نُسيبة بنت كعب - أم عُمارة - من بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو - أم منيع - من بني سلمة .

فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا، ومعه عمه : العباس بن عبد المطلب - وهو يومئذ على دين قومه - إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، وكان أول متكلم .

بداية المحادثة وتشريح العباس لخطورة المسؤولية

وبعد أن تكامل المجلس بدأت المحادثات لإبرام التحالف الديني والعسكري، وكان أول المتكلمين هو العباس بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، تكلم ليشرح لهم - بكل صراحة - خطورة المسؤولية التي ستلقى على كواهلهم نتيجة هذا التحالف . قال :

يا معشر الخزرج - وكان العرب يسمون الأنصار خزرجاً، خزرجها وأوسها كليهما - إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عز من قومه ومنعة في بلده . وإنه قد أبي إلا الانحياز إليكم والحق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم ترون أنكم مُسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه . فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

قال كعب : فقلنا له : قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

وهذا الجواب يدل على ما كانوا عليه من عزم صميم، وشجاعة مؤمنة، وإخلاص كامل في تحمل هذه المسؤولية العظيمة، وتحمل عواقبها الخطيرة .

وألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بيانه، ثم تمت البيعة .

بنود البيعة

وقد روى ذلك الإمام أحمد عن جابر مفصلاً . قال جابر : قلنا : يا رسول الله، علام نبايعك ؟ قال :

( على السمع والطاعة في النشاط والكسل .

وعلى النفقة في العسر واليسر .

وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وعلى أن تقوموا في الله، لا تأخذكم في الله لومة لائم .

وعلى أن تتصروني إذا قدمت إليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبنائكم، ولكم الجنة ) .

وفي رواية كعب - التي رواها ابن إسحاق - البند الأخير فقط من هذه البنود، ففيه : قال كعب : فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورجب في الإسلام، ثم قال : ( أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نسانكم وأبنائكم ) . فأخذ البراء ابن معرور بيده ثم قال : نعم، والذي بعثك بالحق نبياً، لنمنعك مما نمنع أزرنا منه، فبايعنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحرب وأهل الحُلقة، ورثناها كابراً عن كابر .

قال : فاعترض القول - والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم - أبو الهيثم بن النُّيَّهان، فقال : يا رسول الله، إن بيننا وبين

الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله إن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

قال : فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال : ( بل الدَّمُ الدَّمُ، والهَدْمُ الهَدْمُ، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتكم، وأسالم من سالمتم ) .

عقد البيعة

وبعد إقرار بنود البيعة، وبعد هذا التأكيد والتأكد بدأ عقد البيعة بالمصافحة، قال جابر - بعد أن حكى قول أسعد بن زرارة - قال :

فقالوا : يا أسعد، أمط عنا يدك . فوالله لا نذر هذه البيعة، ولا نستقبلها .

وحينئذ عرف أسعد مدى استعداد القوم للتضحية في هذا السبيل وتأكيد منه - وكان هو الداعية الكبير مع مصعب بن عمير - فكان هو السابق إلى هذه البيعة . قال ابن إسحاق : فبنو النجار يزعمون أن أبا أمامة أسعد بن زرارة كان أول من ضرب على يده . وبعد ذلك بدأت البيعة العامة، قال جابر : فقمنا إليه رجلاً رجلاً فأخذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنة .

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولاً . ما صافح رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة أجنبية قط .

اثنا عشر نقيباً

وبعد أن تمت البيعة طلب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يختاروا اثني عشر زعيماً يكونون نقباء على قومهم، يكفلون المسؤولية عنهم في تنفيذ بنود هذه البيعة، فقال للقوم : أخرجوا إلي منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم .

فتم اختيارهم في الحال، وكانوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . وهاك أسماءهم :

نقباء الأوس

نقباء الخزرج

1- أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرِ بْنِ سِمَاكٍ .

1- أُسْعَدُ بْنُ زُرَّارَةَ بْنِ عَدَسٍ .

2- سَعْدُ بْنُ حَيْثَمَةَ بْنِ الْحَارِثِ .

2- سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ بْنِ عَمْرٍو .

3- رفاعة بن عبد المنذر بن زبير .

3- عبد الله بن رواحة بن ثعلبة .

4- رافع بن مالك بن العجلان .

5- البراء بن معرور بن صخر .

6- عبد الله بن عمرو بن حرام .

7- عبادة بن الصامت بن قيس .

8 - سعد بن عبادة بن دُلَيْم .

9- المنذر بن عمرو بن حُنَيْس .

ولما تم اختيار هؤلاء النقباء أخذ عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ميثاقاً آخر بصفتهم رؤساء مسئولين .

قال لهم : ( أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء، ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل على قومي ) - يعنى المسلمين - قالوا : نعم .

### النسب والمولد النبوي الكريم .

أولاً: نسب النبي صلى الله عليه وسلم.

إن النبي صلى الله عليه وسلم أشرف الناس نسباً، وأكملهم خلقاً وحُلُقاً، وقد ورد في شرف نسبه أحاديث صحاح، منها ما رواه مسلم:

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله عز وجل اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من

قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

وقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله نسب النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

«محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن

فهر، بن مالك بن النضر، بن كنانة، بن خزيمه، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان».

قال البيهقي في شرح السنة بعد ذكر النسب إلى عدنان: «ولا يصح حفظ النسب فوق عدنان».

الأسرة النبوية.

تعرف أسرته صلى الله عليه وسلم بالأسرة الهاشمية- نسبة إلى جده هاشم بن عبد مناف- فلنذكر شيئاً من أحوال هاشم ومن بعده.

1- هاشم.

- أن هاشم هو الذي تولى السقاية والرفادة من بني عبد مناف حين تصالح بنو عبد مناف وبنو عبد الدار على اقتسام المناصب فيما

بينهما، وهاشم كان اسمه موسراً ذا شرف كبير، وهو أول من أطعم الثريد للحجاج بمكة، وكان اسمه عمرو فما سمي هاشماً إلا

لهشمه الخبز، وهو أول من سن الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء وال الصيف.

أنه خرج إلى الشام تجاراً، فلما قدم المدينة تزوج سلمى بنت عمرو أحد بنى عدي بن النجار، وأقام عندها، ثم خرج إلى الشام- وهي

عند أهلها قد حملت بعبد المطلب- فمات هاشم بغزة من أرض فلسطين، وولدت امرأته سلمى عبد المطلب سنة 497 م، وسمته شيبه

لشيبه كانت في رأسه ، وجعلت تربيته في بيت أبيها في بئر، ولم يشعر به أحد من أسرته بمكة وكان لهاشم أربعة بنين وهم: أسد،

وأبو صيفي، ونضلة، وعبد المطلب. وخمس بنات وهي: الشفاء، وخالدة، وضعيفة، ورقية، وجنة .

### 2- عبد المطلب

- أن السقاية والرفادة بعد هاشم صارت إلى أخيه المطلب بن عبد مناف، وكان شريفاً مطاعاً ذا فضل في قومه، كانت قريش تسميه

الفياض لسخائه، ولما صار شيبه- عبد المطلب- وصيفاً أو فوق ذلك سمع به المطلب. فرحل في طلبه، فلما رآه فاضت عيناه،

وضمه، وأردفه على راحلته، فامتنع حتى تأذن له أمه، فسألها المطلب أن ترسله معه، فامتنعت فقال: إنما يمضي إلى ملك أبيه، وإلى

حرم الله، فأذنت له، فقدم به مكة مردفه على بعيره، فقال الناس: هذا عبد المطلب، فقال: ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم ... فأقام عنده

حتى ترعرع، ثم إن المطلب هلك بردمان من أرض اليمن، فولى بعده عبد المطلب، فأقام لقومه ما كان أبأوه يقيمون لقومهم، وشرف

في قومه شرفاً لم يبلغه أحد من آبائه، وأحبه قومه، وعظم خطره فيهم.

ولما مات المطلب وثب نوفل على أركاح عبد المطلب فغصبه إياها، فسأل رجالاً من قريش النصره على عمه، فقالوا: لا ندخل بينك

وبين عمك. فكتب إلى أخواله من بني النجار أبياتاً يستنجدهم، وسار خاله أبو سعد بن عدي في ثمانين راكباً، حتى نزل بالأبطح من

مكة، فلتفاه عبد المطلب، فقال: المنزل، يا خال! فقال: لا والله حتى ألقى نوفلاً، ثم أقبل فوقف نوفل، وهو جالس في الحجر مع مشايخ

قريش، فسأل أبو سعد سيفه وقال: ورب البيت لئن لم ترد على ابن أختي أركاحه لأمكنن منك هذا السيف، فقال: رددتها عليه، فأشهد

عليه مشايخ قريش، ثم نزل على عبد المطلب، فأقام عنده ثلاثاً، ثم اعتمر ورجع إلى المدينة، فلما جرى ذلك حالف نوفل بني عبد

شمس بن عبد مناف على بني هاشم، ولما رأت خزاعة نصر بني النجار لعبد المطلب قالوا: نحن ولدناه كما ولدتموه، فنحن أحق

بنصره- وذلك أن أم عبد مناف منهم- فدخلوا دار الندوة، وحالفوا بني هاشم على بني عبد شمس ونوفل.

ثانياً: زواج عبد الله بن عبد المطلب من أمنة بنت وهب، ورؤيا أمنة أم النبي صلى الله عليه وسلم: كان عبد الله بن عبد المطلب من

أحب ولد أبيه إليه، ولما نجا من الذبح وفداه عبد المطلب بمائة من الإبل، زوجه من أشرف نساء مكة نسباً، وهي أمنة بنت وهب بن

عبد مناف بن زهرة بن كلاب. ولم يلبث أبوه أن توفي بعد أن حملت به أمنة، ودُفن بالمدينة عند أخواله بني (عدي بن النجار)، فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته منيته بالمدينة وهو راجع، وترك هذه النسمة المباركة، وكان القدر يقول له: قد انتهت مهمتك في الحياة وهذا الجنين الطاهر يتولى الله - عز وجل - بحكمته ورحمته تربيته وتأديبه وإعداده لإخراج البشرية من الظلمات إلى النور. ولم يكن زواج عبد الله من أمنة هو بداية أمر النبي صلى الله عليه وسلم، قيل للنبي صلى الله عليه وسلم ما كان أول بدء أمرك: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاعت منه قصور الشام». ودعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله: (رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ) [البقرة: 129]. وبشرى عيسى: كما أشار إليه قوله عز وجل حاكيا عن المسيح عليه السلام: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مَّصَدَقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ النُّورِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ) [الصف: 6].

### المولد النبوي الكريم.

ولد الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين بلا خلاف، والأكثرون على أنه لانتني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، والبعض يوم التاسع والمجمع عليه أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل، وكانت ولادته في دار أبي طالب بشعب بني هاشم. قوله صلى الله عليه وسلم: «ورأت أمي كأنه خرج منها نور أضاعت منه قصور الشام» قال ابن رجب: «وخرج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزالت به ظلمة الشرك منها، كما قال تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ - يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ) [المائدة: 15-16]. وقال ابن كثير: «وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشام؛ ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلا للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى بن مريم بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها، ولهذا جاء في الصحيحين: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»، وفي صحيح البخاري: «وهم بالشام». كانت حاضنته صلى الله عليه وسلم أم أيمن بركة الحبشية أمة أبيه، وأول من أرضعته ثويبة أمة عمه أبي لهب. ثم حليلة السعدية مرضعته في بني سعد: وهذه حليلة السعدية تقص علينا خبرا فريدا، عن بركات الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم التي مستها في نفسها وولدها، ورعيها وبناتها.

النبي صلى الله عليه وسلم عند حليلة السعدية وما حدث له. عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما، قال: «لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت حليلة بنت الحارث، في نسوة من بني سعد بن بكر يلتمسون الرضعاء بمكة قالت حليلة: فخرجت في أوائل النسوة على أتان لي، قمرء ومعني زوجي الحارث بن عبد العزى، أحد بني سعد بن بكر، ثم أحد بني ناضرة، قد أدمت أتاننا، ومعني بالركب شارف والله ما تبض بقطرة لبن، في سنة شهباء قد جاع الناس حتى خلص إليهم الجهد، ومعني ابن لي، والله ما ينام ليلنا، وما أجد في يدي شيئا أعله به، إلا أنا نرجو الغيث وكانت لنا غم، فنحن نرجوها.

فلما قدمنا مكة فما بقي منا أحد إلا عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فكرهته، فقلنا: إنه يتيم، وإنما يكرم الظنر ويحسن إليها الوالد، فقلنا: ما عسى أن تصنع بنا أمه أو عمه أو جده، فكل صواحيبي أخذت رضيعاً، فلما لم أجد غيره، رجعت إليه وأخذته، والله ما أخذته إلا إني لم أجد غيره، فقلت لصاحبي: والله لأخذن هذا اليتيم من بني عبد المطلب، فعسى الله أن ينفعنا به، ولا أرجع من بين صواحيبي ولا أخذ شيئاً، فقال: قد أصبت.

قالت: فأخذته، فأتيت به الرحل، فوالله ما هو إلا أن أتيت به الرحل، فأمسيت أقبل ثدياي باللبن، حتى أرويته، وأرويته أخاه، وقام أبوه إلى شارفنا تلك يلمسها، فإذا هي حافل فحلبها، فأرواني وروي، فقال: يا حليلة، تعلمين والله لقد أصبنا نسمة مباركة، ولقد أعطى الله عليها ما لم نتمن، قالت: فبتنا بخير ليلة، شباعاً، وكنا لا ننام ليلنا مع صبينا.

ثم اغتدينا راجعين إلى بلادنا أنا وصواحيبي، فركبت أتاني القمرء فحملته معي، فوالذي نفس حليلة بيده لقطعت الركب حتى إن النسوة ليقلن: أمسكي علينا، أهذه أتانك التي خرجت عليها؟ فقلت: نعم، فقالوا: إنها كانت أدمت حين أقبلنا فما شأنها؟ قالت: فقلت: والله حملت عليها غلاما مباركا.

قالت: فخرجنا، فما زال يزيدنا الله في كل يوم خيراً، حتى قدمنا والبلاد سنة، ولقد كان رعائنا يسرحون ثم يروحون، فتروح أغنام بني سعد جياغاً، وتروح غنمي بطاناً، حفلاً فنحلب، ونشرب، فيقولون: ما شأن غنم الحارث بن عبد العزى، وغم حليلة تروح شباعاً حفلاً، وتروح غنمكم جياغاً، ويلكم اسرحوا حيث تسرح غنم رعائهم، فيسرحون معهم، فما تروح إلا جياغاً كما كانت، وترجع غنمي كما كانت.

قالت: وكان يشب شباباً ما يشبه أحد من الغلمان، يشب في اليوم شباب السنة، فلما استكمل سنتين أقدمناه مكة، أنا وأبوه، فقلنا: والله لا نفارقه أبداً ونحن نستطيع، فلما أتينا أمه، قلنا: والله ما رأينا صبياً قط أعظم بركة منه، وإنما نتخوف عليه وباء مكة وأسقامها، فذعيه نرجع به حتى تبرئ من دائك، فلم نزل بها حتى أذنت، فرجعنا به، فأقمنا أشهراً ثلاثة أو أربعة فبينما هو يلعب خلف البيوت هو

وأخوه في بهم لنا إذ أتى أخوه يشتد، فقال لي ولأبيه إن أخي القرشي، أتاه رجلان عليهما ثياب بيض، فأخذه واضجعا، فشقا بطنه، فخرجت أنا وأبوه يشتد، فوجدناه قائما، قد انتقع لونه فلما رأنا أجهش إلينا، وبكى، قالت: فالتزمته أنا وأبوه، فضمناهما إلينا: ما لك بأبي وأمي؟ فقال: «أتاني رجلان وأضجعاني، فشقا بطني، ووضعوا به شيئا، ثم رداه كما هو» فقال أبوه: والله ما أرى ابني إلا وقد أصيب، الحقى بأهله، فردبه إليهم قبل أن يظهر له ما نتخوف منه، قالت: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فلما رأتنا أنكرت شأننا، وقالت: ما رجعكما به قبل أن أسألكماه، وقد كنتما حريصين على حبسه؟ فقلنا: لا شيء إلا أن قضى الله الرضاة وسرنا ما نرى، وقلنا: نؤويه كما تحبون أحب إلينا، قال: فقالت: إن لكما شأننا فأخبراني ما هو، فلم تدعنا حتى أخبرناها، فقالت: كلا والله، لا يصنع الله ذلك به، إن لابني شأننا، أفلا أخبركما خبره، إني حملت به، فوالله ما حملت حملا قط، كان أخف علي منه، ولا أيسر منه، ثم أريت حين حملته خرج مني نور أضاء منه أعناق الإبل ببصرى - أو قالت: قصور بصرى -، ثم وضعته حين وضعته فوالله ما وقع كما يقع الصبيان، لقد وقع معتمداً بيديه على الأرض رافعاً رأسه إلى السماء فدعاه عنكما فقبضته، وانطلقنا).

1- دروس وعبر:

أ- بركة النبي صلى الله عليه وسلم على السيدة حليلة: فقد ظهرت هذه البركة على حليلة السعدية في كل شيء، ظهرت في إدار تديبها وغازاة حليبيها، وقد كان لا يكفي ولدها، وظهرت بركته في سكون الطفل ولدها  
ب- كانت هذه البركات من أبرز مظاهر إكرام الله له، وأكرم بسببه بيت حليلة السعدية التي تشرفت بارضاعه، وليس من ذلك غرابة ولا عجب.

ج- خيار الله للعبد أبرك وأفضل: اختار الله لحليلة هذا الطفل اليتيم وأخذته على مضض؛ لأنها لم تجد غيره، فكان الخير كل الخير فيما اختاره الله، وهذا درس لكل مسلم بأن يطمئن قلبه إلى قدر الله واختياره والرضا به، ولا يندم على ما مضى وما لم يقدره الله تعالى.

د- أثر البادية في صحة الأبدان وصفاء النفوس، وذكاء العقول: قال الشيخ محمد الغزالي -رحمه الله-: وتنشئة الأولاد في البادية، ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل، أدنى إلى تزكية الفطرة وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف.

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أغلقت على من فيها، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش. وتعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في بادية بني سعد اللسان العربي الفصيح، وأصبح فيما بعد من أفصح الخلق، فعندما قال له أبو بكر - رضي الله عنه - يا رسول الله ما رأيت أفصح منك. فقال صلى الله عليه وسلم: «وما يمنعني وأنا من قريش وأرضعت في بني سعد».

2- ما يستفاد من حادثة شق الصدر:

تعد حادثة شق الصدر التي حصلت له عليه الصلاة والسلام أثناء وجوده في مضارب بني سعد من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمر جليل.

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه حادثة شق الصدر في صغره، فعن أنس بن مالك: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه -يعني ظنهم- فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر المخيط في صدره.

ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان هو إرهاص ميكروالنبوة، وإعداد للعصمة من الشر وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه إلا التوحيد الخالص، وقد دلت أحداث صباه على تحقق ذلك فلم يرتكب إثماً، ولم يسجد لصنم رغم انتشار ذلك في قريش. وفاة أمه وكفالة جده ثم عمه:

توفيت أم النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ست سنين بالأبواء بين مكة والمدينة، وكانت قد قدمت به على أخواله من بني عدي بن النجار تزييره إياهم، فماتت وهي راجعة به إلى مكة، ودفنت بالأبواء، وبعد وفاة أمه كفله جده عبد المطلب، فعاش في كفالته، وكان يؤثره على أبنائه أي أعمام النبي صلى الله عليه وسلم - فقد كان جده مهيباً، لا يجلس على فراشه أحد من أبنائه مهابة له، وكان أعمامه يتهيبون الجلوس على فراش أبيهم، وكان صلى الله عليه وسلم يجلس على الفراش ويحاول أعمامه أن يبعده عن فراش أبيهم، فيقف الأب الجد بجانبه، ويرضى أن يبقى جالساً على فراشه متوسماً فيه الخير، وأنه سيكون له شأن عظيم وكان جده يحبه حباً عظيماً، وكان إذا أرسله في حاجة جاء بها. وذات يوم أرسله في طلب إبل فاحتبس عليه فطاف بالبيت وهو يرتجل يقول:

رب رد راعي محمدًا ... رده لي واصنع عندي بدا

فلما رجع النبي صلى الله عليه وسلم وجاء بالإبل فقال له: يا بني، لقد حزننت عليك كالمراة حزناً لا يفارقني أبداً.

ثم توفي عبد المطلب والنبي صلى الله عليه وسلم في الثامنة من عمره، فأوصى جده به عمه أبا طالب فكفله عمه وحنَّ عليه ورعاه. عمله صلى الله عليه وسلم في الرعي:

كان أبو طالب مُقلِّداً في الرزق فعمل النبي صلى الله عليه وسلم برعي الغنم مساعدة منه لعمه، فلقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن نفسه الكريمة وعن إخوانه من الأنبياء أنهم رعو الغنم، أما هو فقد رعاها لأهل مكة وهو غلام وأخذ حقه عن رعيه، ففي الحديث الصحيح قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» فقال: أصحابه: وأنت؟ قال: «نعم، كنت أرهاها على قراريط لأهل مكة»، إن رعي الغنم كان يتيح للنبي صلى الله عليه وسلم الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال

الصحراء، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل وظلال القمر ونسمات الأشجار، يتيح له لوئاً من التربية النفسية من الصبر والحلم والأناة، والرأفة والرحمة، والعناية بالضعيف حتى يقوى، وزم قوى القوي حتى يستمسك للضعيف ويسير بسيره، وارتياد مشارع الخصب والري وتجنب الهلكة ومواقع الخوف من كل ما لا تتيحه حياة أخرى بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف.

وتذكرنا رعايته للغنم بأحاديثه صلى الله عليه وسلم التي توجه المسلمين للإحسان للحيوانات فكان رعي الغنم للنبي صلى الله عليه وسلم دربة ومرأناً له على سياسة الأمم.

حفظ الله تعالى لنبيه قبل البعثة:

إن الله تعالى صان نبيه صلى الله عليه وسلم عن شرك الجاهلية وعبادة الأصنام، روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام بن عروة عن أبيه قال: حدثني جار لخديجة أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول لخديجة: «أي خديجة، والله لا أعبد اللات والعزى أبداً» وكان لا يأكل ما ذبح على النصب، ووافقه في ذلك زيد بن عمرو بن نفيل.

«وقد حفظه الله تعالى في شبابه من نزعات الشباب ودواعيه البرئثة التي تنزع إليها الشيبوية بطبعها، ولكنها لا تلائم وقار الهداة وجلال المرشدين» فعن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهيمون به، إلا مرتين من الدهر، كلتيهما يعصمني الله منهما، قلت ليلة لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في أغنام أهله يرعاها: أبصر إلي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة، كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت، فجننت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء، وضرب دقوف، ومزامير، فقلت: ما هذا؟» فقالوا: فلان تزوج فلانة، رجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الغناء وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا حر الشمس فرجعت فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت، فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي فقال: فما فعلت؟ قلت: ما فعلت شيئاً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته».

وهذا الحديث يوضح لنا حقيقتين كل منهما على جانب كبير من الأهمية:

أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متمتعاً بخصائص البشرية كلها، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميول الفطرية التي اقتضت حكمة الله أن يجبل الناس عليها، فكان يحس بمعنى السم واللهو، ويشعر بما في ذلك من متعة، وتحدثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون.

2- أن الله عز وجل قد عصمه مع ذلك عن جميع مظاهر الانحراف وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها.

لقاء الراهب بحيرا بالرسول صلى الله عليه وسلم وهو غلام:

«خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي صلى الله عليه وسلم في أشياخ من قريش فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلوا رحالهم فخرج إليهم الراهب، وكانوا قبل ذلك يسيرون، فلا يخرج إليهم ولا يلتفت.

قال: فهم يحلون رحالهم فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال له أشياخ من قريش: ما علمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة.

ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به، وكان هو في رعية الإبل قال: أرسلوا إليه فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه.

قال: فبينما هو قائم عليهم، وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم فإن الروم إذا عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا سبعة قد أقبلوا من الروم، فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جاءنا أن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس، وإنا قد أخبرنا خبره، بعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟

قالوا: إنما اخترنا خير لك لطريقك هذا، قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا. قال: فبايعوه وأقاموا معه.

قال: أنشدكم الله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب.

حرب الفجار:

اندلعت هذه الحرب بين قريش ومن معهم من كنانة وبين هوازن، وسببها أن عروة الرخال بن عتبة بن هوازن أجار لطيفة للنعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ، فقال البراض بن قيس بن كنانة: أتجيرها على كنانة؟ قال: نعم، وعلى الخلق، فخرج بها عروة، وخرج البراض يطلب غفلته حتى قتله، وعلمت بذلك كنانة فارتحلتها وهوازن لا تشعر بهم، ثم بلغهم الخبر، فأتبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم أياماً، وعاونت قريش كنانة وشهد محمد صلى الله عليه وسلم بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم.

وسميت يوم الفجار بسبب ما استحل فيه من حرمان مكة التي كانت مقدسة عند العرب.

وقد قال صلى الله عليه وسلم عن تلك الحرب: «كنت أنبل على أعمامي» أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها.

وكان صلى الله عليه وسلم حينئذ ابن أربع عشرة أو خمس عشرة سنة، وقيل ابن عشرين، ويرجح الأول أنه كان يجمع النبال ويناولها لأعمامه، مما يدل على حداثة سنة. وبذلك اكتسب الجرأة والشجاعة والإقدام، وتمرن على القتال منذ ريعان شبابه، وهكذا انتهت حلف الفضول:

كان حلف الفضول بعد رجوع قريش من حرب الفجار، وسببه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقه فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بأهل المروة فقام الزبير بن عبد المطلب فقال: ما لهذا مترك. فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تميم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان فصنع لهم طعاماً، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكوننَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُرد إليه حقه ما بل بحر صوفة، وما بقي جبلاً ثبير وحراء مكانهما.

ثم مشوا إلى العاص بن وائل، فانترعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه. وسمت قريش هذا الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر. وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحلف الذي هدموا به صرح الظلم، ورفعوا به منار الحق، وهو يعتبر من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان. وقد قال صلى الله عليه وسلم: «شهدت حلف المطيبين مع عمومي وأنا غلام، فما أحب أن لي حمر النعم، وأني أنكته».

وقال صلى الله عليه وسلم: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت».

تجارته صلى الله عليه وسلم لخديجة وزواجه منها وأهم الأحداث إلى البعثة أولاً: تجارته لخديجة وزواجه منها

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال ليجتروا بمالها، فلما بلغها عن محمد صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار، فقبل وسافر معه غلامها ميسرة، وقدم الشام، وباع محمد صلى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد من السلع، فلما رجع إلى مكة وباعت خديجة ما أحضره لها تضاعف مالها.

وقد حصل محمد صلى الله عليه وسلم في هذه الرحلة على فوائد عظيمة بالإضافة إلى الأجر الذي ناله، إذ مر بالمدينة التي هاجر إليها من بعد، وجعلها مركزاً لدعوته، وبالبلاد التي فتحها ونشر فيها دينه، كما كانت رحلته سبباً لزواجه من خديجة بعد أن حدثها ميسرة عن سماعته وصدقته وكرام أخلاقه، ورأت خديجة في مالها من البركة ما لم تر قبل هذا وأخبرت بشمائله الكريمة، ووجدت ضالته المنشودة، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة فرضي بذلك، وعرض ذلك على أعمامه، فوافقوا كذلك، وخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب فخطبها إليه، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصدقها عشرين بكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يتزوج غيرها حتى ماتت رضي الله عنها، وقد ولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم غلامين وأربع بنات، وابناه هما: القاسم، وبه كان صلى الله عليه وسلم يكنى وعبد الله، ويلقب بالطاهر والطيب. وقد مات القاسم بعد أن بلغ سنّاً تمكنه من ركوب الدابة، ومات عبد الله وهو طفل، وذلك قبل البعثة. أما بناته فهن: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وقد أسلمن وهاجرن إلى المدينة وتزوجن. هذا وقد كان عمر الرسول صلى الله عليه وسلم حين تزوج خديجة رضي الله عنها خمساً وعشرين سنة، وكان عمرها أربعين سنة.

ثانياً: اشتراكه في بناء الكعبة الشريفة:

لما بلغ محمد صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة لما أصابها من حريق وسيل جارف صدع جدرانها، وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رضماً فوق القامة فأرادوا هدمها ليرفعوها ويسقفوها، ولكنهم هابوا هدمها، وخافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدوكم في هدمها، فأخذ المعول، ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم نزع، ولا نريد إلا الخير. وهدم من ناحية الركنين: فترى الناس تلك الليلة، وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً، وردناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد غادياً يهدم، وهدم الناس معه حتى انتهوا إلى حجارة خضرة كالأسنمة أخذ بعضها ببعض.

وكانوا قد جزؤوا العمل، وخصوا كل قبيلة بناحية، واشترك سادة قريش وشيوخها في نقل الحجارة ورفعها، وقد شارك النبي صلى الله عليه وسلم وعمه العباس في بناء الكعبة وكانا ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي صلى الله عليه وسلم: اجعل إزارك على رقبتيك يقيك من الحجارة، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثم أفاق فقال: «إزاري إزاري» فشد عليه إزاره فلما بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا أن أبا أمية بن المغيرة قال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد، فلما توافقوا على ذلك دخل محمد صلى الله عليه وسلم فلما رآه قالوا: هذا الأمين، قد رضينا، فلما أخبروه الخبر قال: «هلما ثوباً؟» فأتوه به فوضع الحجر فيه بيديه ثم قال: «لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوا جميعاً» فرفعه، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده ثم بنى عليه.

وأصبح ارتفاع الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج، لنلا يدخل إليها كل أحد، فدخلوا من شأوا، وليمنعوا الماء من التسرب إلى جوفها، وأسند سقفاها إلى ستة أعمدة من الخشب، إلا أن قريشاً قصرت بها النفقة الطيبة عن إتمام البناء على قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحجر، وبنوا عليه جداراً قصيراً دلالة على أنه منها؛ لأنهم شرطوا على أنفسهم أن لا يدخل في بنائها إلا نفقة طيبة، ولا يدخلها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة لأحد.

بشارات الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم:

دعا إبراهيم عليه السلام ربه أن يبعث في العرب رسولا منهم، فأرسل محمداً إجابة لدعوته، قال تعالى: { رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } [البقرة: 129] وذكر القرآن الكريم أن الله تعالى أنزل البشارة بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم في الكتب السماوية المنزلة على الأنبياء السابقين فقال تعالى: { الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ } [الأعراف: 157].  
وبشر به عيسى عليه السلام، قال تعالى: { وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ } [الصف: 6].

وأعلم الله تعالى جميع الأنبياء ببعثته، وأمرهم بتبليغ أتباعهم بوجوب الإيمان به، واتباعه إن هم أدركوه (1) كما قال تعالى: { وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } [آل عمران: 81].  
الحالة العامة التي وصل إليها الناس:

لخص الأستاذ الندوي الحال التي كان عليها العرب وغيرهم وقتذاك بقوله: كانت الأوضاع الفاسدة، والدرجة التي وصل إليها الإنسان في منتصف القرن السادس المسيحي أكبر من أن يقوم لإصلاحها مصلحون ومعلمون في أفراد الناس، فلم تكن القضية قضية إصلاح عقيدة من العقائد، أو إزالة عادة من العادات، أو قبول عبادة من العبادات، أو إصلاح مجتمع من المجتمعات، فقد كان يكفي له المصلحون والمعلمون الذين لم يخل منهم عصر ولا مصر.

ولكن القضية كانت قضية إزالة أنقاض الجاهلية، ووثنية تخريبية، تراكمت عبر القرون والأجيال، ودفنت تحتها تعاليم الأنبياء والمرسلين، وجهود المصلحين والمعلمين، وإقامة بناء شامخ مشيد البنين، واسع الأرجاء، يسع العالم كله، ويؤوي الأمم كلها، قضية إنشاء إنسان جديد، يختلف عن الإنسان القديم في كل شيء، كأنه ولد من جديد، أو عاش من جديد قال تعالى: ( أَوْ مَنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ) [الأنعام: 122].

إرهاصات نبوته صلى الله عليه وسلم:

ومن إرهاصات نبوته صلى الله عليه وسلم تسليم الحجر عليه قبل النبوة، فعن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن». ومنها الرؤيا الصادقة وهي أول ما بدئ له من الوحي فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.  
وحبب إليه صلى الله عليه وسلم العزلة والتحنن (التعب) فكان يخلو في غار حراء وهو جبل يقع في الجانب الشمالي الغربي من مكة، ويتعبد فيه الليالي نوات العدد، فتارة عشرة، وتارة أكثر من ذلك إلى شهر، ثم يعود إلى بيته فلا يكاد يمكث فيه قليلاً حتى يتزود من جديد لخلوة أخرى، ويعود الكرة إلى غار حراء، وهكذا إلى أن جاءه الوحي وهو في إحدى خلواته تلك.

## نزول الوحي والدعوة السرية.

نزول الوحي على سيد الخلق أجمعين صلى الله عليه وسلم.

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد بلغ الأربعين من عمره وكان يخلو في غار حراء بنفسه، ويتفكر في هذا الكون وخالقه، وكان تعبده في الغار يستغرق ليالي عديدة حتى إذا نفذ الزاد عاد إلى بيته فتزود لليالي أخرى، وفي نهار يوم الاثنين من شهر رمضان جاءه جبريل بغتة لأول مرة داخل غار حراء، وقد نقل البخاري في صحيحه حديث عائشة رضي الله عنها.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبيب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنن فيه -وهو التعب- الليالي نوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ» قال: فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني قال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: «ما أنا بقارئ» فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ( اقرأ باسم ربك الذي خلق

خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ أَفْرَأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ( [العلق: 1: 4] فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرْجُف فواده، فدخل على خديجة بنت خويلد فقال: «زملوني! زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «لقد خشيت على نفسي» فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة، حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى: فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أوأخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي». البخاري، كتاب بدء الوحي رقم 3.

### أنواع الوحي:

تحدث العلماء عن أنواع الوحي فذكروا منها:

- 1- الرؤيا الصادقة: وكانت مبدأ وحيه صلى الله عليه وسلم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، وقد جاء في الحديث «رؤيا الأنبياء وحي»، قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام: ( يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبُكَ ).
  - 2- الإلهام: وهو أن ينفث الملك في روعه - أي قلبه من غير أن يراه- كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن روح القدس نفث في روعي» (1) أي: إن جبريل عليه السلام نفخ في قلبي: «أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» (2).
  - 3- أن يأتيه مثل صلصلة الجرس، أي مثل صوته في القوة، وهو أشده، كما في حديث عائشة: أن الحارث - رضي الله عنه - سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشد علي، فيفصم عني وقد وعيت ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول» (3).
  - 4- ما أوحاه الله تعالى إليه، بلا وساطة ملك، كما كلم الله موسى بن عمران عليه السلام، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن وثبوتها لنبيينا صلى الله عليه وسلم في حديث الإسراء (4).
  - 5- أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله تعالى أن يوحيه.
  - 6- أنه صلى الله عليه وسلم كان يتمثل له الملك رجلاً، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً (5). هذا ما قاله ابن القيم عن مراتب الوحي.
- لقد كان نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم بداية عهد جديد في حياة الإنسانية بعد ما انقطع، وتاهت البشرية في دياجير الظلام.
- وكان وقع نزول الوحي شديداً على رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو واضح من النص، بالرغم من أنه كان أشجع الناس وأقواهم قلباً، كما دلت على ذلك الأحداث خلال ثلاث وعشرين سنة، وذلك لأن الأمر ليس مخاطبة بشر لبشر، ولكنه كان مخاطبة عظيم الملائكة وهو يحمل كلام الله تعالى، ليستقبله من اصطفاه الله جل وعلا لحمل هذا الكلام وإبلاغه لعامة البشر.
- ولقد كان موقفاً رهيباً ومسئولية عظمى، لا يقوى عليها إلا من اختاره الله تبارك وتعالى لحمل هذه الرسالة وتبليغها.
- ومما يصور رهبة هذا الموقف ما جاء في هذه الرواية من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لقد خشيت على نفسي» وقول عائشة رضي الله عنها في هذا الحديث: (فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها قال: «زملوني زملوني» فزملوه حتى ذهب عنه الرَّوع.
- ومما يبين شدة نزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أخرجه الإمام البخاري ومسلم -رحمهما الله- من حديث عائشة رضي الله عنها: قالت: (ولقد رأيتني رسول الله صلى الله عليه وسلم- ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه، وإن جبينه ليتفصد عرقاً) (2) وحديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: (كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي كُربَ لذلك وترَبَّدَ وجهه)(مسلم، كتاب الفضائل رقم 2334).

"سنة تكذيب المرسلين":

(يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أوأخرجي هم؟» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا) (5) فقد بين الحديث سنة من سنن الأمم مع من يدعوهم إلى الله عز وجل وهي التَّكْذِيبُ والإخراج، كما قال تعالى عن قوم لوط: ( فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ) [النمل: 56].

وكما قال قوم شعيب: ( قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ) [الأعراف: 88].

وقال تعالى: ( وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ) [إبراهيم:



«فتر الوحي»

تحدث علماء السيرة قديماً وحديثاً عن فترة الوحي، فقال الحافظ ابن حجر: وفتور الوحي عبارة عن تأخيره مدة من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان صلى الله عليه وسلم وجده من الروح، وليحصل له التشوق إلى العود(1).  
فعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال وهو يحدث- أي بحديث النبي صلى الله عليه وسلم- عن فترة الوحي: «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني فأنزل الله تعالى: ( يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ - قُمْ فَأَنْذِرْ - وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ - وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ - وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ) [المدثر: 1-5] فحمى الوحي وتتابع»(2).

فتر الوحي اختلف فيه على عدة أقوال، والصحيح أنها كانت أياماً، وقد روى ابن سعد عن ابن عباس ما يفيد ذلك، وأما ما اشتهر من أنها دامت ثلاث سنين أو سنتين ونصف فليس بصحيح، وأما ما جاء بلاغاً أنه صلى الله عليه وسلم حزن حزناً جعله يغدو ليتردى من شواهد الجبال، وأن جبريل عليه السلام كان يظهر له في كل مرة ويبشره بأنه رسول الله فمرسل ضعيف، كما أنه يتدافى مع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم.

### الدعوة السرية

أولاً: الأمر الرباني بتبليغ الرسالة

عرف النبي صلى الله عليه وسلم معرفة اليقين أنه أصبح نبياً للرحيم الكريم، وجاء جبريل عليه السلام للمرة الثانية، وأنزل الله على نبيه قوله تعالى: ( يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ - قُمْ فَأَنْذِرْ - وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ - وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ ) [المدثر: 1-4].  
كانت هذه الآيات المتتابعة إيداناً للرسول صلى الله عليه وسلم بأن الماضي قد انتهى بمنامه وهدونه، وأنه أمامه عمل عظيم، يستدعي اليقظة والتشمير، والإنذار والإعذار، فليحمل الرسالة، وليوجه الناس، وليأنس بالوحي، وليقو على عنائه فإنه مصدر رسالته ومدد دعوته(1).

وتعد هذه الآيات أول أمر بتبليغ الدعوة، والقيام بالتبعية، وقد أشارت هذه الآيات إلى أمور هي خلاصة الدعوة المحمدية، والحقائق الإسلامية التي بني عليها الإسلام كله، وهي الوحدانية، والإيمان باليوم الآخر، وتطهير النفوس، ودفع الفساد عن الجماعة، وجلب النفع.

كانت هذه الآيات تهيئاً لعزيمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لينهض بعبء ما كلفه من تبليغ رسالات ربه، فيمضي قدماً بدعوته، لا يبالي العقبات والحوادث، كان هذا النداء المتلطف ( يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ) إيداناً بشحن العزائم، وتوديعاً لأوقات النوم والراحة، وجاء عقب هذا النداء الأمر الجازم بالنهوض ( قُمْ ) في عزيمة ناهضة وقوة حازمة، تتحرك في اتجاه تحقيق واجب التبليغ، وفي مجيء الأمر بالإنذار منفرداً عن التبشير في أول خطاب وجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد فترة الوحي، إيداناً بأن رسالته تعتمد على الكفاح الصبور، والجهاد المرير، ثم زادت الآيات في تقوية عزيمة النبي صلى الله عليه وسلم، وشد أزره وحضه على المضي قدماً إلى غاية ما أمر به، غير عابئ بما يعترض طريقه من عقبات مهما يكن شأنها فقل له: ( وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ) أي: لا تعظم شيئاً من أمور الخلق، ولا يتعاطمك منهم شيء، فلا تتهيب فعلاً من أفعالهم، ولا تخشى أحدًا منهم، ولا تعظم إلا ربك الذي تعهدك وأنت في أصلاب الآباء وأرحام الأمهات، فرباك على موافقته، وورعك بإحسانه وجوده، حتى أخرجك للناس نبياً ورسولاً، بعد أن أعدك خلقاً وخلقاً، لتحمل أمانة أعظم رسالاته، ( وَرَبِّكَ فَكَبِيرٌ ) فكل تعظيم وتكبير وإجلال حق الله تعالى وحده، لا يشاركه فيه أحد، أو شيء من مخلوقاته.

وفي قوله: ( وَثِيَابِكَ فَطَهِّرْ ) فكانه قيل له صلى الله عليه وسلم: فأنت على طهرك وتطهرك بفطرتك في كمال إنسانيتك بما جبلك الله عليه من أكرم مكارم الأخلاق، وبما حباك به من نبوته ليعدك بها ليومك هذا، أحوج إلى أن تزداد في تطهرك النفسي، فتزداد من المكارم في حياتك مع الناس والأشياء، فأنت اليوم رسول الله إلى العالمين، وكمال الرسالة في كمال الخلق الاجتماعي، صبراً، وحلماً، وعفواً، وإحساناً ودُؤوباً على الجد في تبليغ الدعوة إلى الله تعالى، ولا يثنيك إيداء، ولا يقعدك عن المضي إلى غايتك فادح البلاء. وفي قوله: ( وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ) فكانه قيل له صلى الله عليه وسلم: ليكن قصدك ونيتك في ترك ما تركت، فطرة وطبعاً هجره تكليفاً وتعبداً لتكون قدوة أمتك، وعنوان تطهرها بهداية رسالتك.  
بدء الدعوة السرية:

كان أول شيء فرضه الله من الشرائع بعد الإقرار بالتوحيد إقامة الصلاة، وقد جاء في الأخبار حديث تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم وزوج خديجة الوضوء والصلاة، حين اقترضت على رسول الله؛ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهزم له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت منه عين، فتوضأ جبريل عليه السلام، والرسول ينظر ليريه كيف الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما رأى جبريل توضأ، ثم قام جبريل عليه السلام فصلى به وصلى النبي صلى الله عليه وسلم بصلاته، ثم انصرف جبريل عليه السلام فجاء رسول الله خديجة فتوضأ لها، يريها كيف الطهور للصلاة، كما أراه جبريل عليه السلام، فتوضأت كما توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما صلى به جبريل عليه السلام.  
بعد نزول آيات المدثر قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الله وإلى الإسلام سراً، وكان طبيعياً أن يبدأ بأهل بيته، وأصدقائه، وأقرب الناس إليه.

#### 1- إسلام السيدة خديجة رضي الله عنها:

كان أول من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم من النساء، بل أول من آمن به على الإطلاق السيدة خديجة رضي الله عنها، فكانت أول من استمع إلى الوحي الإلهي من فم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، وكانت كذلك أول من تعلم الصلاة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبيتها هو أول مكان تلي فيه أول وحي نزل به جبريل على قلب المصطفى الكريم صلى الله عليه وسلم بعد غار حراء.

#### 2- إسلام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -:

وكان أول من آمن من الصبيان، وكانت سنة إذ ذاك عشر سنين على أرجح الأقوال، وهو قول الطبري وابن إسحاق، وقد أنعم الله عليه بأن جعله يتربى في حجر رسوله صلى الله عليه وسلم قبل الإسلام، حيث أخذه من عمه أبي طالب وضمه إليه. وكان علي - رضي الله عنه - ثالث من أقام الصلاة بعد رسول الله وبعد خديجة رضي الله عنها. وقد ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه، ومن جميع أعمامه، وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا، ليضمهما ذلك البيت الطاهر التقي بالإيمان، المفعم بصدق الوفاء وكرم المنبت.

#### 3- إسلام زيد بن حارثة - رضي الله عنه -:

هو أول من آمن بالدعوة من الموالى حبب النبي صلى الله عليه وسلم ومولاه، ومُتَبَنَاهُ: زيد بن حارثة الكلبى، الذي أثر رسول الله على والده وأهله، عندما جاءوا إلى مكة لشراؤه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فترك رسول الله الأمر لحارثة فقال زيد لرسول الله: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، وأنت مني بمنزلة الأب والعم، فقال له والده وعمه: ويحك تختار العبودية على الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال: نعم، وإني رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي أختار عليه أحداً أبداً.

#### 4- إسلام بنات النبي صلى الله عليه وسلم:

وكذلك سارع إلى الإسلام بنات النبي صلى الله عليه وسلم، كل من زينب، وأم كلثوم، وفاطمة ورقية، فقد تأثرن قبل البعثة بالدهن صلى الله عليه وسلم في الاستقامة وحسن السيرة، والتنتزه عما كان يفعله أهل الجاهلية، من عبادة الأصنام والوقوع في الآثام، وقد تأثرن بوالدتهن، فأسرعن إلى الإيمان.

وبذلك أصبح بيت النبي صلى الله عليه وسلم أول أسرة مؤمنة بالله تعالى منقادة لشعره في الإسلام، ولهذا البيت النبوي الأول مكانة عظيمة في تاريخ الدعوة الإسلامية، لما حياه الله به من مزايا وخصه بشرف الأسبقية في الإيمان وتلاوة القرآن وإقام الصلاة.

#### 5- إسلام أبي بكر الصديق - رضي الله عنه -:

كان أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - أول من آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم من الرجال الأحرار، والأشراف، فهو من أخص أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة، وتردد ونظر، إلا أبا بكر، ما عكم حين دعوته ولا تردد فيه»، فأبو بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو حسنة من حسناته عليه الصلاة والسلام، لم يكن إسلامه إسلام رجل، بل كان إسلامه إسلام أمة، فهو في قريش كما ذكر ابن إسحاق في موقع العين منها:

كان رجلاً مألفاً لقومه محبباً سهلاً. وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر. وكان رجلاً تاجراً. ذا خلق ومعروف. وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته، وحسن مجالسته.

فهو من أشهر تجارها، فأرباب المصالح هم كذلك قصاده، ولطيبته وحسن خلقه تلقى عوام الناس يرتادون بيته، فهو المضيف الدمش الخلق، الذي يفرح بضيوفه، ويأنس بهم، فكل طبقات المجتمع المكي تجد حظها عند الصديق رضوان الله عليه كان رصيده الأدبي والعلمي والاجتماعي في المجتمع المكي عظيماً، ولذلك عندما تحرك في دعوته للإسلام استجاب له صفوة من خيرة الخلق وهم:

-عثمان بن عفان - رضي الله عنه - في الرابعة والثلاثين من عمره.

-عبد الرحمن بن عوف - رضي الله عنه - في الثلاثين من عمره.

-سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - وكان في السابعة عشرة من عمره.

-الزبير بن العوام - رضي الله عنه - وكان في الثانية عشرة من عمره.

-وظلحة بن عبيد الله - رضي الله عنه - وكان في الثالثة عشرة من عمره.

كان هؤلاء الأبطال الخمسة أول ثمرة من ثمار الصديق أبي بكر - رضي الله عنه -، دعاهم إلى الإسلام فاستجابوا، وجاء بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فرادى، فأسلموا بين يديه، فكانوا الدعوات الأولى التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبهم أعزه الله وأيده، وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجا، رجالاً ونساءً، وكان كل من هؤلاء الطلائع داعية إلى الإسلام، وأقبل معهم رعي السابقين، الواحد، والاثنين، والجماعة القليلة، فكانوا على قلة عددهم كتيبة الدعوة، وحسن الرسالة لم يسبقهم سابق ولا يلحق بهم لاحق في تاريخ الإسلام.

ومضت الدعوة سرية وفردية على الاصطفاء، والاختيار للعناصر التي تصلح أن تتكون منها الجماعة المؤمنة، التي ستسعى لإقامة دولة الإسلام ودعوة الخلق إلى دين رب العباد والتي ستقيم حضارة ربانية ليس لها مثيل.

الدفعة الثانية:

جاء دور الدفعة الثانية، بعد إسلام الدفعة الأولى، فأول من أسلم من هذه الدفعة:

أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن مخزوم بن مرة ابن عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم (بنة بنت عبد المطلب) وأخوه من الرضاع، والأرقم بن أبي الأرقم المخزومي، وعثمان بن مظعون الجمحي، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وقدامة عبد الله ابنا مظعون، وفاطمة بنت الخطاب بن نفيل أخت عمر بن الخطاب، وزوجة سعيد بن زيد، وأسما بنت أبي بكر الصديق، وخباب بن الأرت حليف بني زهرة.

الدفة الثالثة:

أسلم عمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود بن الحارث بن شمش بن مخزوم.. بن هذيل، ومسعود بن الفاري، وهو مسعود بن ربيعة، بن عمرو، بن سعيد بن عبد العزى، بن حمالة بن القارة. وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، وفهيرة وأمه، وكان عبدًا للطفيل بن الحارث بن سخبرة، فاشتراه الصديق وأعتقه، واسلم معهم خلق آخرون .

ومن السابقين إلى الإسلام: أبو ذر الغفاري، وأخوه أنيس، وأمه.

ومن أوائل السابقين: بلال بن رباح الحبشي.

وهؤلاء السابقون من جميع بطون قريش، عدهم ابن هشام أكثر من أربعين نفرًا.

وقال ابن إسحاق: ثم دخل الناس في الإسلام إرسالاً من الرجال والنساء حتى فشا ذكر الإسلام في مكة، وتحدثت به.

ويتضح من عرض الأسماء السابقة، أن السابقين الأولين إلى الإسلام كانوا خيرة أقوامهم، ولم يكونوا كما يقول بعض الباحثين في السيرة: إنهم من حثالة الناس، أو من الأرقاء الذين أرادوا استعادة حريتهم أو ما شابه ذلك— وجانب الصواب بعض كُتاب السيرة لدى حديثهم عن السابقين الأولين إلى الإسلام، عندما وصفوهم بأن معظمهم كان خليطاً من الفقراء والضعفاء والأرقاء فما الحكمة في ذلك؟).

ويقولهم: كان رصيد هذه الدعوة بعد سنوات ثلاث من بدايتها، أربعين رجلاً وامرأة، عامتهم من الفقراء والمستضعفين والموالي

والأرقاء، وفي مقدمتهم أخلاط من مختلف الأعاجم: صهيب الرومي وبلال الحبشي)

إن البحث الدقيق يثبت أن مجموع من أشير إليهم بالفقراء والمستضعفين والموالي والأرقاء والأخلاط من مختلف الأعاجم هو ثلاثة عشر، ونسبة هذا العدد من الكل من الداخلين في الإسلام لا يقال «أكثرهم» ولا «معظمهم» ولا «عامتهم».

استمرار النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة:

في دعوته السرية، يستقطب عدداً من الأتباع والأنصار من أقاربه وأصدقائه، وخاصة الذين يتمكن من ضمهم في سرية تامة، بعد إقناعهم بالإسلام، وهؤلاء كانوا نعم العون والسند للرسول صلى الله عليه وسلم لتوسيع دائرة الدعوة في نطاق السرية، وهذه المرحلة العصبية من حياة دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ظهرت فيها الصعوبة والمشقة، في تحرك الرسول صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه بالدعوة، فهم لا يخاطبون إلا من يأمنوا من شره، ويتقون به، وهذا يعني أن الدعوة خطواتها بطيئة وحذرة، كما تقتضي صعوبة المواظبة على تلقي مطالب الدعوة من مصدرها، وصعوبة تنفيذها، إذا كان الداخل في هذا الدين ملزماً منذ البداية بالصلاة، ودراسة ما تيسر من القرآن -مثلاً- ولم يكن يستطيع أن يصلي بين ظهراني قومه، ولا أن يقرأ القرآن، فكان المسلمون يتخفون في الشعاب والأودية إذا أرادوا الصلاة.

إن المنهج الذي سار عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في تربية أتباعه هو: القرآن الكريم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه تربية شاملة في العقائد والعبادات والأخلاق والحس الأمني وغيرها؛ ولذلك نجد في القرآن الكريم آيات كريمة تحدثت عن الأخذ بالحس الأمني؛ لأن من أهم عوامل نهوض الأمة أن ينشأ الحس الأمني في جميع أفرادها، وخصوصاً في الصف المنظم الذي يدافع عن الإسلام، ويسعى لتمكينه في دنيا الناس، ولذلك نجد النواة الأولى للتربية الأمنية كانت في مكة، وتوسعت مع توسع الدعوة ووصولها إلى دولة.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يشرف بنفسه على تربية أصحابه في كافة الجوانب، ووزعهم في أسر، فمثلاً كانت فاطمة بنت الخطاب وزوجها سعيد بن زيد، وهو ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنهم، كانوا في أسرة واحدة مع نعيم بن عبد الله النحام بن عدي، وكان معلمهم خباب بن الأرت، وكان اشتغالهم بالقرآن لا يقتصر منة على تجويد تلاوته وضبط مخارج حروفه ولا على الاستكثار من سرده، والإسراع في قراءته، بل كان همهم دراسته وفهمه، ومعرفة أمره ونهيه والعمل به.

دار الأرقم بن أبي الأرقم:

تذكر كتب السيرة أن اتخاذ دار الأرقم مقرًا لقيادة الرسول صلى الله عليه وسلم كان بعد المواجهة الأولى، التي برز فيها سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال ابن إسحاق: «كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، فاستخفوا بصلاتهم من قومهم، فبينما سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم، وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوه، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحي بعير فشجه، فكان أول دم أهرق في الإسلام».

أصبحت دار الأرقم السرية مركزاً جديداً للدعوة يتجمع فيه المسلمون، ويتلقون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كل جديد من الوحي، ويستمعون له -عليه الصلاة والسلام- وهو يذكرهم بالله، ويتلو عليهم القرآن، ويضعون بين يديه كل ما في نفوسهم وواقعهم فيرهبهم، عليه الصلاة والسلام على عينه. كما تربي هو على عين الله عز وجل، وأصبح هذا الجمع هو قرّة عين النبي صلى الله عليه وسلم.

الأسباب في اختيار دار الأرقم:

كان اختيار دار الأرقم لعدة أسباب منها:

- 1- أن الأرقم لم يكن معروفًا بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه بداره.
  - 2- أن الأرقم بن الأرقم - رضي الله عنه - من بني مخزوم، وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم. فلو كان الأرقم معروفًا بإسلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره؛ لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف العدو.
  - 3- أن الأرقم بن أبي الأرقم كان قتي عند إسلامه، فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم تفكر قريش في البحث عن مركز التجمع الإسلامي، فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه عليه الصلاة والسلام.
- فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب في دور بني هاشم، أو في بيت أبي بكر - رضي الله عنه - أو غيره، ومن أجل هذا نجد أن اختيار هذا البيت كان في غاية الحكمة من الناحية الأمنية، ولم نسع أبدًا أن قريشًا داهمت ذات يوم هذا المركز وكشفت مكان اللقاء.

انتشار الدعوة في بطون قريش وعالميتها:

كان انتشار الإسلام في المرحلة السرية، في سائر فروع قريش بصورة متوازنة دون أن يكون ثقل كبير لأي قبيلة، وهذه الظاهرة مخالفة لطبيعة الحياة القبلية آنذاك. وهي إذا أفقدت الإسلام الاستفادة الكاملة من التكوين القبلي والعصبية لحماية الدعوة الجديدة ونشرها، فإنها في الوقت نفسه لم تولب عليها العشائر الأخرى بحجة أن الدعوة تحقق مصالح العشيرة التي انتمت إليها وتعلي من قدرها على حساب العشائر الأخرى، ولعل هذا الانفتاح المتوازن على الجميع أعان في انتشار الإسلام في العشائر القرشية العديدة دون تحفظات متصلة بالعصبية، فأبو بكر الصديق من (تيم)، وعثمان بن عفان من (بني أمية)، والزبير بن العوام من (بني أسد)، ومصعب بن عمير من (بني عبد الدار)، وعلي بن أبي طالب من (بني هاشم)، وعبد الرحمن بن عوف من (بني زهرة)، وسعيد بن زيد من (بني عدي)، وعثمان بن مظعون من (بني جُمح)، بل إن عددًا من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش، فعبد الله بن مسعود من (هذيل)، وعتبة بن غزوان من (مازن)، وعبد الله بن قيس من (الأشعريين)، وعمار بن ياسر من (عنس) من مَدْحَج، وزيد بن حارثة من (كلب)، والطفيل بن عمرو من (دوس)، وعمرو بن عيسى من (سليم)، وصهيب النمري من (بني النمر بن قاسط)، لقد كان واضحًا أن الإسلام لم يكن خاصًا بمكة. لقد شق النبي صلى الله عليه وسلم طريقه بكل تخطيط ودقة، وأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى، فاهتم بالتربية العميقة، والتكوين الدقيق، والتعليم الواسع، والاحتياط الأمني، والانسحاب الطبيعي في المجتمع، والإعداد الشامل للمرحلة التي بعد السرية، لأنه عليه الصلاة والسلام يعلم أن الدعوة إلى الله لم تنزل لتكون دعوة سرية، يخاطب بها الفرد بعد الفرد، بل نزلت لإقامة الحجة على العالمين، وإنقاذ من شاء الله إنقاذه من الناس من ظلمات الشرك والجاهلية، إلى نور الإسلام والتوحيد، ولذلك كشف الله تعالى عن حقيقة هذه الدعوة وميدانها، منذ خطواتها الأولى، حيث إن القرآن المكي بين شمول الدعوة وعالميتها: قال تعالى: ( إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ) [ص: 87].

وقال تعالى: ( وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ) [القلم: 52].

إن الدعوة جاءت لتخاطب البشر، كل البشر، ولتنفذ منهم من سبقت له من الله الحسنی، وهذا يعني أن الدعوة جاءت ومن خصائصها، الإعلان والصدع، والبلاغ، والبيان، والإنذار، وتحمل ما يترتب على هذا من التكذيب، والإيذاء والقتل.

إن استسرار النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته أول الأمر، إنما هو حال استثنائي لظروف وملابسات خاصة، وهي ظروف بداية الدعوة وضعفها وغربتها، وينبغي أن يفهم هذا ضمن هذا الإطار.